عبدالله التعزي

الحفائر تتنفس

دار الساقي

الحفائر تتنفس

لوحة الغلاف: جون بايبر «نورفولك» ١٩٣٩ (تفصيل)

عبد الله التعزي

الحفائر تتنفس



الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 569 4

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

... ثم تَقَلّبَتْ قليلاً أمامهم

وتمتمت بهمس الأفق:

...

...

وأيضاً، هنالك وجوه من الخلف

لا نضع عليها الضوء...

كأننا لا نراها...

ولا نسمع أصواتها الهادرة...

وتبدو تماماً... غير موجودة.

يلف نور الصباح رؤوسهم المحاطة بالهواء البارد المنبعث من الأرض. ومع زحف الضوء نحو السماء، تبدأ مسيرتهم؛ مسيرة عبيد خرساء تعطي همساً متسللاً في الأفق يزيد من ارتفاع الشمس، ويدفع أنفاسهم للخروج قويةً من أنوفهم المتيبّسة، ليتمدد الدم إلى أن يصل إلى أطرافهم.

مع ارتفاع الشمس تظهر جبال الحفائر صلبةً... باهيةً، متعطرةً بأنفاس الليل، فتسري قشعريرة صباحهم الباكر، تلفح ببردها أرواحهم المرتجفة.

كانوا يُساقون كهزيمة. يتقدمهم النخاس بملابسه المتسخة الأطراف، وقد اسودَّتْ أظافره بترسب أوساخ تكوَّمت تحتها. بدا كأحد القادة المنكسرين، قديماً، متربأ، تعلوه صفرة الدهر.

ينتعلون أحذيةً مهترئةً من الجلد القاسي، مربوطةً في منتصف سيقانهم. فتصبح أقدامهم محاصَرةً بأنفاس الجلد الميت المشدود حولها، فيما هم يرتاعون من هذا الموت الحي الملتصق بأقدامهم المتعبة. تثار حول أقدامهم الأتربة الناعمة وتتطاير ذرات الغبار، فيستنشقونها بخوراً متصاعداً من الأرض، ويُدخلونها إلى صدورهم همّاً يلتقطونه من الهواء.

من أطراف الحفائر الغائرة يتقدمون بهمهماتهم المنتظمة. وخطواتُهم الساحبةُ تُصدر أصواتاً مرتفعة كلما اقتربوا من الدكة[1]. يلهثون، فيسخن الهواء حول وجوههم.

أخذ بعضهم يستند إلى زميله، بينما الصغار منهم لا يكفّون عن الكلام. من بعيد، يبدون كقبيلة صغيرة من البدو، قادمةٍ من وسط الصحراء، والشمسُ فوقهم تتوهج بأشعتها. يبدون من البعيد، كأنهم مربوطون ببعضهم البعض؛ الرجال أولاً ثم النساء. عندما تلوح دكة البيع من بعيد، يكون العبيد السود منهم قد سخنت الدماء في عروقهم، وتضخمت عضلاتهم تحت جلودهم اللامعة، وتقسّمت، فيرتفع سعرهم عند البيع. أما النساء البيض فتضخ حرارة الشمس دماءهن، فتحمرُّ وجوهُهن وتغتسل بالعرق، عندها ينشدّ الجلد حول هذه الوجوه النضرة، فتبدو صافيةً كأنها مملوءة صحةً وجمالاً. وعندما يبدأ البيع تختلط الأصوات وترتفع همهمات المنادين بنقاشات لا تنتهي.

لا أذكر أين شاهدت هذه المسيرةَ، ولا كيف وصلتني تفاصيلُها الدقيقة، ولكنني متأكد من أنها قد حدثت فعلاً. أحياناً أشعر بأن هذا حلم؛ فلا يوجد عبيد ولا تنتصب دكتهم في الجوار. لكنني أتذكرهم وأتحدث عنهم، وكأن دكةَ بيعهم تجسّدت أمامي بأطرافها الدبقة في ركن هذه الغرفة المعتمة.

كثيراً ما يحدث هذا لي، فيلتبس عليّ الواقع بخيالات هلامية؛ خيالات أفقد صوابي أمامها وأعجز عن قبولها. فهي لا تُحتمَل. أشعر بها تتقدمني وتجاورني مصغيةً، وكأننا نتحمل معاً صراخنا في وجه الأيام. خيالات تتمدد ألماً يصل إلى ذاكرتي، وتتشكّل كائناً غريباً

(١) دكة: مكان بيع العبيد في مكة.

يجلس في هذه الغرفة مع جثة سراج الأعرج الدافئة أمامي. ألم الخيالات هذه يُضحكني بدموع غيمة لها أطراف الدماء.

هناك أوقات أحتار في فهم الزمن فيها عند تقدم الأحداث البلهاء. فلا تفسيرَ لمسيرة العبيد، ولا يقينَ من موت سراج الأعرج. لكن جثته تؤكد موته السريع أمامي. والدبيب الهامس لمسيرة العبيد ما يزال يرنّ في أذني. وأراني عاجزاً عن اتخاذ الحركة المناسبة في هذه الدقائق الخرساء وكأنها لا تعني مرور الزمن. نفضتُ غبار أفكاري الخائفة وتعلقت بصوتي، عندها دوت هذه الكلمات في رأسي كشظايا صلبة من القاع:

يجب أن تتحرك. . .

يجب أن تتكلم. . .

هدأتُ قليلاً بعد أن دارت الكلمات داخل رأسي، ولفّ الصمت المكان. سكون الجدار حولي يمزق الوقت ويدفعني إلى شد جسمي بتردد لأنهض وأقترب من جسد سراج الأعرج بحذر. جثته ممدة بعرض الغرفة، هناك قبل نهاية السرير القذر إلى نهاية طرف الباب. قدمه اليسرى لم تدخل الغرفةَ بعدُ، ويده اليسرى ملقاة كعصا، مكسورة تحاول التماسك. بقدمه اليمنى المثنية وركبته المتورمة بدا كأنه يحاول أن يمشي ممدداً على الأرض. انحسار ثوبه المتسخ كشف عن ساق غطتها الأوساخ وكثيرٌ من الشعر الأسود.

عند سقوطه على علبة الحليب القديمة (النيدو) الفارغة، انسحب خده على جدار العلبة ليبقى أنفه ملتصقاً بها، وخده الأيسر يلمس طبطاب الأرض المترب. كان انتشار الدم تحت رأسه بطيئاً وساخناً، يلتهم ذرات الغبار من الهواء.

عندما نهضتُ، لمست مرور الزمن كأسرع ما يكون. وعندما انحنيت على سراج الأعرج ولمست أعلى خده الأيمن، اكتشفتُ دفأه المنسحب، وأكاد أشعر الآن بحرارة جسده تتسرب إلى الأرض ناشرةً الخوفَ حولي.

كلُّ شيء تمّ سريعاً: صعودي إليه؛ دخولي إلى البيت؛ سلامي عليه؛ تناوله الطعامَ. . . وموتُه؛ جميعها حدثت وكأنها تهرب من شيء يتعقبها. أنا لا أنكر أنني كنت أتمنى موته، ولكنني لم أتوقع أن يموت أمامي، بهذه الصورة. رغبتي لم تكن واضحة كفكرة الموت، ولا أستطيع تجميع ملامحها بصورة واضحة ويقينية إلى أن أمرَّ بالتجربة المربكة، وأتقابلَ مع الموت كخصمين مندفعين إلى الهاوية. حتى بعد المعركة، لا يتحدد مَن المهزوم، لكنني موقن من نهاية صراعنا المميت!.

أرى الأحداث الآن، كأنها عند مفترق طرق، وهي تقف في المنتصف. ثم تتحرك النظرات في اتجاهها الذي حددته بعد أن تركّزت في ذاتي المذنبة، واستشعرت همسها في الابتعاد عن الخطيئة، غير مدركة أنها نظراتي، وأنها جزء مني مهما حاولت الابتعاد عنها.

عندما طرقتُ بابه كنتُ قد قررتُ أن أفهم منه، أحدّثه، أجعلَه يحكي لي ماذا يعرف عن الحفائر. بعد ذلك سأعرف إذا كانت رغبة قتله تتحرك في داخلي أم أنها دُفنت، وخصوصاً أن سراج الأعرج مقطوع من شجرة، كما يقولون، ولن يسأل عنه أحد إذا اختفى، وستنساه الحفائر مع الأيام.

فمن طبائع الحفائر أن تحفر لكل حكاية قبراً تُدفن فيه، ولا تسمح بأن يوضع لأي منها شاهد قبر يميّزه عن غيره. كانت الحفائر نفسها

قبراً كبيراً يحتوي على ألوف من القبور الصغيرة التي تبدو وكأنها ستستمر في وجودها ما استمرت أسرارُها في الكتمان.

فأن يموتَ سراج الأعرج ـ وهذا الاسم كان تكريماً يُطلق عليه، غير لقبه الشحاذ ـ شيء لا يسبب إزعاجاً لأحد، فحياته، منذ قدومه إلى الحفائر، لم تكن تعني لأهل الحفائر شيئاً. كانت سائرة، منذ البداية، بلا هدف، ومن دون أن تقترب هذه الحياة من أحد غيره.

عندما أنظر الآن إلى ملامح سراج الأعرج الممدَّد أمامي، أجدها أكثر وضوحاً من قبل. فأنا فعلاً لم أستطع تحديد ملامحه بدقة برغم السنين التي عاشها بيننا في الحفائر، إلاّ أنني أدرك تماماً، أن كثيرين، مثلي، لا يعرفون من هو سراج الأعرج، الشحاذ الذي أصبح مع مرور الوقت مَعْلَماً من معالم الحفائر؛ هذه الحارة التي لا تخفى على أي شخص يعبرها متجهاً إلى الحرم من جهة الغرب، وتتمثَّل لهم بطلعتها المتجهة نحو السحاب، إحدى بوابات مكة إلى الحرم، وأتوقعها دائماً مشرَعةً أمام كل القادمين من الذنوب، كنافذة مفتوحة للصعود إلى السماء.

كثيرون أيضاً لا يعرفون كيف أصبح شحاذاً. أنا لا أتذكر أولَ مرة رأيته فيها. فمنذ أن وعيت نفسي وأنا أراه، وأعتبره من الأشياء التي لا حاجة إلى السؤال عنها، بل يجب اعتبارُها مسلَّماتٍ موجودةً، ويجب التعامل معها مهما كانت غريبة. لم تكن معرفته، بصورة دقيقة، تعني الكثير، فقد جعل نفسه نكرةً لا يمكن تعريفها.

في أوقات متباعدة، أحتار في عدم معرفة الحفائر ملابساتِ طبيعتِه الغريبة، وإن كنت أجزم بوجود معانٍ خفيةٍ خلف أسماله المرقَّعة. فشحاذته نوعٌ غريبٌ من أنواع الجنون. هكذا حسبتها، وهكذا أحسبها. فهو لا يعيش لكي يشحذ، إنما يشحذ لكي يعيش. هو نفسه لا يعي

هذا، ولكن ما يفعله ينطبق بالفعل على هذه الشحاذة الغريبة. في مقدوري القول إن حياته تشبه حياة حيوانات الغابة المنطلقة، التي عندما تجوع تأكل باسترخاء، ثم تحوم حول نفسها باحثة عن الحياة.

ينظر دائماً إلى الأرض. يبحث عن شيء غير موجود، ولا يقبل أن يعترض طريقه أحد. كان ينطلق من طرف الشارع من غير أن يهتم بالمارّة أو السياراتِ القليلةِ العابرة بين حين وآخر، ويعبرُ الطريق ناظراً إلى الأرض باهتمام غريب. كان الأمر محيّراً للكثيرين؛ كيف يمشي من دون أن يصطدم بعمود أو بأحد المارة. كأنَّ له عينين وسط رأسه العفن. ملابسه متسخة طوال السنة. ومع أنني لم أعد أتبين أصلَ لونها، إلاّ أنه كان دائم العناية بها إذا تمزقت، وإذا تمزقت فقط. فكان لا يعمل أيَّ شيء قبل أن يقوم بترقيعها بأية قطعة قماش تصل إلى يديه؛ فلا يهدأ أو تستقر له حال حتى ينتهي من إصلاحها.

حين كنت في العاشرة، كانت ملامحه تبدو كأنها ملامح العم دهديل البيض، وكان أبي يقول عنه:

ـ ليته يحب يمشط شعره زي ما يحب البيض البلدي.

وسراج أيضاً كان لا يحب العناية بشعر رأسه إلاّ عندما يستحم في بازان الماء الكائن في ركن (حوش) الشناقطة في الطرف الغربي من الحفائر، قبل أن يُهجَر منذ سنوات. كان يغسل رأسه أمام السقائين كلهم. أما اليوم فلا أعرف كيف يستحم. أسمح له في بعض الأسابيع بأن يغسل رأسه في مدخل البيت. يفرك رأسه بيديه والماء ينصب عليه من (البزبوز)[٢]، وهو يتقافز من برودة الماء متمتماً، هادراً ببعض الأصوات الغامضة.

---

(٢) بزبور: صنبور الماء.

أحياناً أسمع عن اختفائه المفاجئ ثم ظهوره المفاجئ، أيضاً. وحين يُسأل عن ذلك، تأتي إجابته مباشرة يقذف بها في وجه سائله، ممزوجة برذاذ ريقه اللزج:

ـ يا عم أنا جيعان. . .

يتستر بالجوع الظاهر على وجهه المصفرّ مُخفياً سرّه خلف ملابسه البالية، ومستخفاً، بصورة غير مباشرة، بالسائل. وإن سألته أنا محاصِراً إيّاه ليقول الحقيقة، يبدأ في البكاء، ويستند إلى الجدار خلفه، ثم ينزلق ببطء إلى أن يتقرفص مردداً جملته المعهودة بصوت متهدج مضيفاً إليها «يا عم ارحمني، أنا جيعان».

يستحم بكامل ملابسه، مرةً واحدة في الأسبوع، قبل أن يذهب إلى صلاة الجمعة. يخرج بعدها من (البازان)[٣] متجهاً إلى المسجد من غير أن ينظر إلى أحد، بل يصوّب عينيه إلى التراب كأنه يحاول أن يحصي حبّاته، أو أن يكتشف شيئاً جديداً بين الحجارة الصغيرة. أسمعه في بعض الأحيان يُقسِم هامساً بينه وبين نفسه، إنه لن يريه أحداً مهما كان.

في الحفائر كانت الأقوال عن أصله ومكان ولادته متضاربة. منهم من يقول إن أباه كان من كبار المطوفين، ولكنه كان عاقاً به، مما جعل أباه يغضب عليه ويطرده، ليهيم من يومها، في الحارات والشوارع والأزقة. ويقولون إن جداراً سقط عليه، وهو نائم في إحدى الخرائب، ففقَدَ صوابه وأصبح غير قادر على العمل، أو تذكُرِ حياته السابقة، ومن يكون؟ فاضطر إلى أن يأتي إلى مسجد الحفائر. ربما الصدفة هي التي

(٣) البازان: مكان في مكة ينقل منه السقاؤون الماء، وعادة يكون فوق بئر ارتوازي.

قادته، ليجده الناس ماداً يده عند باب المسجد منذ الفجر. ظل على هذا الحال منذ خمسين أو ستين عاماً حتى اليوم.

وآخرون يتهامسون بأنه ربما كان جاسوساً يقوم بنقل الأخبار، ويشي بالناس، متستراً في هيئة شحاذ كي لا يعرفه أحد!

وأقرب الأقوال إلى التصديق من قبل معظم أهل الحفائر، أنه منذ ولادته في حارة بعيدة قد تكون المعابدة أو الحجون، وهو متخلِّف عقلياً. ويروون أنه مع تنقلات الحجاج داخل مكة، ضاع عن أهله، وأخذ يسير على غير هدى إلى أن تعب وشعر بالجوع وسقط في الحفائر، فجلس جوار المسجد وطلب أن يأكل. ومع أن كثيرين من أهل الحارة تحمسوا لهذه الرواية، إلاَّ أن أحداً لا يتذكر أول من نادى بضرورة البحث عن أهل هذا الولد في مركز العمدة قائلاً:

ـ لازم نعرف أهله ونسلمه. تراهم يدورو عليه دحين.

كان جواب العمدة بعد أن ارتسمت على وجهه علامات الحيرة والتساؤل:

ـ ولكن كيف نعرف أهله وهو ما يتكلم... وما أظنه يعرف يتكلم؟

ـ ما أدري... ندور في كل مكان... في حارة الباب والشبيكة وجياد والمسفلة وسوق الليل وشعب علي وشعب عامر، وفي كل الحواري الين نلاقي له أهل.

ثم أردف منفعلاً:

ـ لازم يكون له أهل... ما في أحد من غير أهل يا جماعة؟

بدأوا البحث في الحارات المجاورة لعدة أيام بلا جدوى. وبدأت

الأخبار تتناقل بطريقة غريبة عجيبة، من شخص إلى آخر، وكل واحد منهم يضع كلماته الخاصة بطريقته الخاصة، والطريف أنها كانت تؤخَذ في ما بعد بوصفها جزءاً من الحقيقة.

بدأت القصة بولد ضائع موجود في الحفائر، وعلى أهله أن يأتوا لأخذه من العمدة. ثم انتقلت القصة من مركاز إلى آخر إلى أن عادت الأخبار إلى الحفائر، مرة أخرى، تروي عن وجود إنسان له رأس ثور (يتسول) عند الحرم، يقوم بأكل حمام رب البيت حياً أمام الناس، ويجلس على مخدة من ريش الحمام كيسها مصنوع من جلد امرأة سوداء مقتولة. بعدها، توقف الناس عن البحث بالتدريج خوفاً من أن يكون خبر الإنسان برأس الثور، هذا، صحيحاً!

الأفكار متضاربة، ولا أحد يعرف الحقيقة القاطعة. كأنها تخفّت بين الحفر بانتظار فأس البحث الصلبة. ومع مرور الزمن نسي الناس هذه الحكايات كلُّها. أصبحوا متعايشين معه ينظرون إليه كشيء غير ضار. بل كان نافعاً إلى درجة كبيرة. الجميع يعرفون قدرته على استخدام الأعشاب الطبية. فهو يداوي كثيراً من الأمراض، ولا يطلب على ذلك أجراً، مما جعل الجميع ينظرون إليه بريبة في البداية، وبشفقة في النهاية، حتى إنهم لم يحاولوا أن يسألوه عن أهله مرة أخرى.

كنت أجلس مع أبي في غرفة الحجامة بعد انتهاء الزحمة. وعندما لا أعود أرى أحداً، أستعجل أن أسأله، قبل أن يتغيّر مزاجه، عن سراج الأعرج، ولماذا يسمّونه الأعرج مع أنه لا يعرج وقدماه سليمتان؟

ـ لمّن شافوه الناس أول مرة كانت رجله اليمنى متورمة ويعرج عند المشي. من يومها سموه الأعرج.

ـ وسراج مين سماه به؟

ـ سراج كانت الكلمة الوحيدة اللي يقولها لمن لقوه. كان يقول سراج حلو... سراج طيب... سراج جيعان... فسمّوه سراج الأعرج.

كنت أستمع إلى أبي باهتمام طفل في الثامنة فاغراً فمي، ومتخشباً في مكاني كمن يسمع خرافة عن عالم آخر غريب، إلى أن تغيّرت لهجته وصاح بي قائلاً:

ـ هيا قوم وغَسّل عدة الحجامة والكؤوس والأمواس قبل ما تنام.

ـ ...

ـ بسرعة.

ـ طيب دحين.

لم أكن متلكئاً عندما نزلت صفعته على رقبتي بقوة. كدت أصطدم بالطاولة الصغيرة أمامه. أخذت أجمع الكؤوس والأمواس وبعض الأدوات التي لا أعرف كيفية استخدامها، من دون أن أُغفل التنصّت إلى تنهداته الطويلة المتحسرة. ارتجاف يدي وأنا أجمع تلك الأدوات، كان متداخلاً مع الظل الذي كان يُغرق الغرفة والمتناسب تماماً مع قلّة إدراكي لما يقول.

وخلال تلك اللحظات التي أقوم فيها برفع الأدوات أحس بأنفاس سراج الأعرج المتلاحقة تلامس رقبتي (مكان الصفعة). تسللت الرهبة عندها لتتمدد ببرودة اقشعر لها جسدي. أكره هذه اللحظات التي تختلط فيها الذكريات بكوابيس الواقع المزعجة. إنها تدفعني إلى حافة الخيالات المتدفقة كشلال هادر أمامي أقف حائراً حياله، وكأنني أتقيأ أنفاساً ليس لها كلمات.

لم يملك سراج الأعرج منزلاً محدداً. كان يتنقل من خرابة إلى أخرى من دون أي التزام أو مسؤولية، كهر أو ككلب وحيد منسحب من الحارة. وظلّ على هذه الحال، إلى أن استقر قبل سنوات في بيت متهدم أعلى الجبل، أعطاه إيّاه عم معتوق بايلة كوقف يستفيد منه من دون أن يمتلكه، بعد أن عالجه من ألم في ركبتيه.

لم يكن بيت سراج الأعرج متهدماً تماماً. فيه غرفةٌ كاملة ليس لها باب، وحمامٌ عربي تفوح منه رائحة عفنة، وكان محاطاً بسور متهدم. قمت بزيارته عدة مرات، وفي كل مرة أستغرب كيف يمكن لإنسان أن يقترب من هذا المكان، فكيف بالعيش فيه. وبعد أن أخرج أشعر بأنني كنت في بؤرة عفنة خرجت للتوّ منها، بينما تبقى الرائحة في أنفي ساعات بعد ذلك.

صحته أكثر شيء أحارُ فيه. كان دائماً معافىً. لم ألحظه غير مرة واحدة يسعل بشدة. وقتها اختفى وعاد، وقد تجددت صحته كأنه لم يتوعك. أسمع حكايات غريبة عن جسمه الذي لا يهرم. ذكرت لي جدتي معتوقة القرملية أنها كانت تراه منذ خمسين سنة كما هو اليوم؛ التجاعيد نفسها؛ والصوت نفسه. كأنما هو صخرة لا ترى النور والهواء. ومن بين ركام الأقاويل كان يصلني بعض الحكايات عن صحته التي كادت تذهبُ ويموت، ولكنه يختفي ليظهر كما كان، بصحة جيدة ووجه مملوء بالتجاعيد المتجدرة، ويمارس حياته الغريبة مرة أخرى، بلا ألم.

كنت أشاهده في بعض الأيام وأنا خارج من المدرسة، يأكل ما يقدَّم له من بقايا الأكل يتفضل بها سكان الحفائر عليه في جميع الأوقات. أعتقد أنه ربما كان يُضطر إلى الصيام بعض الأحيان، من دون أن يشعر به أحد. حتى هو نفسه نادراً ما كان يتألم من ذلك.

لا يطيق سراج الأعرج سماع عبارة كنّا نطلقها عليه، ونحن صغار، ولا يزال يُجَن جنونه عندما يسمعها من أيّ كان. فهي تُخرجه عن طوره إلى حالةٍ يقترب فيها من حافة الجنون، وتجعله يبدو أقرب إلى اقتراف جريمة، لو قُيّض له أن يمسك أحداً منا.

لم نكن نجد ما يمنعنا من أن نستفزّه. بل كنا نجد متعةً في ذلك. كنا نتحيّن فرصة رؤيته، فننادي علي:

- حبيبي يا محروس... حبيبي يا محروس.

وكان يستشيط حينها سراج الأعرج جنوناً وغضباً. يتحوّل حينها إلى مخلوق ثانٍ... إلى شخص غريب، وهائج.

لم أجد أيَّ مبرر لغضبته هذه، ولا زلت أعتبرها لغزاً لم يستطع أحد معرفة حلّ له. الأقوال تختلف وتتصارع أمام هذه المقولة. (سليمان نردومي) قائد (المشكلجية) في الحفائر ورمزهم الذي يمثّلهم ويمثّل الحارة في جميع المعارك تقريباً وفي جميع رقصات المزمار، كان يقول إن سراج الأعرج قد تعرّف إلى شخص اسمه محروس ومارس معه اللواط، وأصبح هو (الوش)[٤] الذي ينبري للدفاع عنه! وكانت الأيمان الغليظة تتوسط جميع الحكايات التي كان سليمان نردومي يرويها عن تلك العلاقة بينهما، والتي يتسلى بها وسط أصحابه، وتُقابَل بالضحكات والنكات، على اعتبار ما قاله سليمان نردومي من الحقائق التي لا تقبل النقاش.

ستي معتوقة القرملية تحكي لأبي عن ولد غير شرعي لسراج الأعرج كان قد أنجبه من بنت الهندية التي في أعلى الجبل. لم أسمع

(٤) الوش: شخص ينتشي بوجوده في المجلس من قبل صاحبه، وبعض الأحيان يكون الطرف السالب في عملية اللواط.

متى حدث هذا؟ ولكني أعتقد أنه ربما حدث في شباب سراج الأعرج، عند قدومه إلى الحفائر. ذكرت ستي معتوقة أيضاً أن محروساً هذا قد مات هو وأمه عندما احترق البيت بهما. أعرف ذلك البيتَ المحروق، وأعرف أن صاحبته هندية، والبيت أصبح مهجوراً لا يسكنه أحد. لكني لا أدري هل كان هناك طفل أم لا؟

لم أستطع تصديق هذه الحكاية ولا غيرها، فقد كنتُ شبه متأكد، في ذلك الوقت، من أن سراج الأعرج ليس إلا شخصاً عادياً ربما ينقصه الذكاء، أو ربما لديه عيب خلقي منذ الولادة. ومع الوقت، انتقض هذا الاعتقاد تماماً، وأصبحت شبه متأكد من أن سراجاً هذا، ليس إنساناً عادياً مطلقاً.

لحظةَ فتح سراج الأعرج البابَ، قابلتني رائحة عرقه الكريهة، وكان ذلك كفيلاً بأن يبرز تنافر مرتبك بيننا. دخلت منقبضاً، بينما تركني هو مسرعاً إلى الحمام وكلمات اعتذار غير واضحة يتمتم بها. لم أفهم ما يقول. دخلت الغرفة وجلست على طرف السرير. تنفست بعمق مبدّداً بعض الوقت، ثم تطلعت حولي تبرُّماً، دلالةً على نفاد صبري، إلى أن عاد مبلّلاً ثيابه ببقع ماء منتشرة في المنتصف. جلس على الأرض وأكل إلى أن شبع. كأنه كره أن يموت جائعاً. خرج بعدها ليغسل الصحون. تعجبت من هذه النظافة التي حلّت فجأة عليه، ولكنه لم يهتمَّ لنظراتي، وكأنني غير موجود.

تطلعت إلى السقف والجدران، وإلى كومة الملابس في الركن، وإلى كل أجزاء الغرفة، إلى أن اصطدمت قدمي بعلبة كبيرة من حليب (النيدو)[٥] فارغة، اعتاد الجلوس عليها كلما زرته. اليوم دفعتُها بقدمي

(٥) النيدو: نوع من أنواع الحليب المجفف.

لأُخرجها من تحت السرير. لم أرغب في أن يجلس في جواري على السرير برائحته تلك التي لا تطاق.

كنتُ أسمع وقع خطواته يتردّد بسرعةٍ، إلى أن وصل وابتسامته البلهاء معلقة على وجهه. اصطدمت قدمه اليسرى بعتبة الباب فتعثر وهوى على الأرض. كانت ذراعه اليمنى ممدودةً أمامه، وذراعه اليسرى مطروحةً بالقرب من جنبه. لقد حاول أن يوازن جسده لكنه لم يستطع، فوقع على الأرض، وارتطم رأسه بحافة علبة (النيدو) الصلبة، وبقي بعدها ممدداً بلا حراك. استكان جسده والتصق خده بالأرض. نزف كثيراً، أمامي. كان جسداً هامداً لا يتحرك. كأنه أعلن استقالته من الحياة. كأنه أعلن استسلامه لهذه الراحة الأبدية. كأنه ملَّ من تعبه المضني، والطويل، وآن له أن ينعم بسكينة الموت. لم أتحرك من مكاني. تجمّدت أحملق فيه، وتيبّستُ فوق السرير تيبُّسَ هذا الموت الرابض بالقرب مني. كانت لحظات سكون أبدية، استطعت بعدها أن أتحرك بطيئاً. اقتربت منه ثم عدت إلى مكاني لا أدري ماذا أفعل. هل أذهب لطلب المساعدة؟ أم أتركه ولا أعود؟ كان خياراً صعباً؛ لا أريده أن يعود إلى الحياة، ولا أريده أن يموت أيضاً!.

■ ■ ■

كنت قد وقفت قبل أن أعاودَ الجلوس في مكاني على السرير. كانت هذه الحركةَ الوحيدةَ التي استطعت القيامَ بها، ربما إجلالاً للموت. عندما تراخيت في جلستي لم يكن في مقدوري أن أستوعب ما حدث. ترامت حولي الغرفة. فأنا أجلس في هذه الغرفة المتربة، وحولي ما يشبه الأثاث مبعثراً بطريقة مريعة، وأمامي جثة سراج الأعرج دافئة، قريبة من الموت كثيراً.

لم يكن موت سراج الأعرج واضحاً تماماً. صحيح أن موته كان، بالنسبة إليّ، أمنيةً أرجو أن تتحقق، إلاّ أن رُعبَ تلك اللحظة، كاد يصيبني بالجنون. فمعرفتي الموتَ الذي شهدته مرّات عدة، ليست حافزاً للقتل. هذه المرة، كان الموت مختلفاً. كان توقيته يزرعني رعباً وصمتاً جامداً. مشهد الموت الجاثي أمامي هذه المرة، بارداً، تركني حائراً بين مشاعر الحزن والخوف.

عندما تتزاحم الأحداث والأمور أمامي، أستشعر تعباً غائماً يُفقدني القدرة على الحركة. أسندت رأسي إلى الجدار وأغمضت عينيّ قليلاً. ربما تمكن مني التعب. كانت لحظات خاطفة تخدرت خلالها عيناي. عندما فتحت عينيّ كان كل شيء كما هو؛ الجثة أمامي وقد تجلّط الدم واسودّ تحت رأسه. تمدد الهدوء حولي كظلال صنم متهدم.

كان ظلام الليل قد خف، وأصبح قليل السواد مكتسياً لوناً رمادياً باهتاً، متناسباً مع شحوبي، مما دفعني إلى التحديق في العتمة بسأم وخوف.

ظللت ساكناً معانداً الهواء في صمته، ومحاولاً استيعابَ ما حدث. فبهذا النور المنسحب يكون الليل قد انقضى وأنا أتحسس جثة سراج الأعرج برهبة الاستكشاف. ألهث مضطرباً كأنني قادم من بعيد، من أطراف الجبال؛ هناك من عمق الحفائر.

هل أجلس طوال الليل، أم أخرج وأُقفل الباب وكأن شيئاً لم يكن، وكأن أمراً لم يحصل، وأتناسى حديثي مع سراج الأعرج ودخولي بيتَه قبل ساعات؟ لم تَغْنني الإجابة عن هذا السؤال بقدر ما كنت أحاول أن أطمئنَّ إلى أنني لا زلت أجد مبرِّراً أحدث به نفسي.

سمعت أصواتاً مكتومة. لم أتبين مصدرها بعد، لكنها صادرة من الركن. تنبهت بعدها إلى رهبة الصمت المطبق على الغرفة. كانت الأصوات متأتية من صندوق النفايات. لربما هو هرٌّ يعبث بمحتوياتها. عتمة الليل في الخارج بَنَت حاجزاً مظلماً، ولكنني متأكد من أن لمعة برق خاطفة تراءت لي في الركن. اعتقدت في البداية أنها عينا هر، ولكنني عندما حدقت أكثر، خمّنتُ أنها صينية تلمع من شق في الركن. كنت قد سمعت سراج الأعرج يتحدّث عن أهل الخير الذين لا ينسونه أبداً. لم أسأله يومها، إيضاحاً، وهو لم يتحدث عن الطريقة التي يتذكرونه بها، والتي أصبحت واضحة أمامي الآن. إن أهالي الحفائر يعطفون على سراج الأعرج ويتصدّقون عليه بالطعام، وها هي صينية الأكل اللامعة وُضعت في الشق، ولم يظهر مَن وضعها، ولم أستطع أن أحدد ملامحه. فقد اختفى بسرعة. كأنَّ هذه الصينية قد هبطت من

السماء إلى أن استقرت في الشق المعتم بالركن.

اجتاحني شعور مبهم عندما بدأت أفكر في الأكل، وأمامي شخص ميت مبتسم ببلاهة، وتحت رأسه بقعة من الدم المتجلِّط. لم يكن شعوراً مقزّزاً. كان فقط شعوراً مبهماً؛ شعوراً لا يحتمل التفسير.

عندما توقفت عن مضغ الطعام وقمت بازدراد آخر لقمة في فمي، انتابني صداع شديد جعل جسدي كتلةً من الألم. لا أستطيع أن أجزم بأنني فعلاً شبعت، ولكنني متأكد من أن الطعام كان مُرَّ المذاق، وطعمه يوحي بالضعف، عدا عن رائحته المتصاعدة إلى أنفي مع غبار الغرفة محيلةً تنفسي إلى جزء من عملية الأكل المر.

بارتفاع طبقات الظلام الخفيفة في الخارج، وانتشار الضوء، زادت الحركة حولي، وكأن محتويات الغرفة قد انتشت بالضوء المحيط بها، فبدأت تتمايل، مما دفع ألم معدتي المتزايد إلى إجباري على تقيؤ الطعام الذي، للتوّ، أكلته بكامل مرارته. اندفعت إلى الخارج لأتقيأ خارج الغرفة، عند طرف الباب. كنت أقف مترنحاً وأنا أتقيأ، وأكاد أتعلق بباب الغرفة القذر. لم أستطع أن أنظر إلى ما تقيأته. كانت الرائحة العابقة خارج الغرفة تجبرني على إغماض عينيّ وسدّ أنفي، بقرف. هذه الرائحة الكريهة سبّبت لي ألماً في أنفي أجبرني على الهروب إلى داخل الغرفة ماسحاً فمي بيدي، ومتجهاً نحو السرير بغير اتزان، حتى ارتميت فوقه جالساً في المكان نفسه. خُيِّلَ إليّ لحظتها أن الحقيقة تبحث عن موقع جواري لتجلس بالقرب مني في هذا الصمت العفن.

أغمضت عينيّ لبعض الوقت ثم فتحتهما أبحث عن وهم أو حلم أصدق به أنني بعيد عن هذه الغرفة، إلى أن وصلت إلى جثة سراج الأعرج وابتسامته الجامدة. أدركتُ حينها مدى تعذيبه لي بوجوده هنا

عند قدمي، وأحسست بأنه لم يكتفِ بهذا، بل ترك جثته تتحرك ببطء نحوي.

الألم والخوف أنسياني ألمي تماماً. فتحت عينيّ، واكتشفت فعلاً أنه يحرك جثته هازئاً بي. فقد تغيّر مكان يده عن البارحة. لم تكن يده ممدودة هكذا الليلة الماضية. لقد تحرّكت قليلاً نحوي.

في غمرة هذا الصمت، تحركت الجثة وكأنها تبحث عن مكان ترتاح فيه وتقلقني. جعلتني حركتها البطيئة هذه أراقب ما حولي وأشاركه الصمت. أتخيَّلُ هذه الغرفة، بمحتوياتها، كأنها قبر فرعوني، فأحاول أن أحيط الفراغ حولي بأسرار الربط السحرية هذه التي أتصورها، علّي أتمكن، ربما، من السيطرة على خوفي المرعب.

تمددتُ فوق السرير بتراخٍ محاولاً أن أستريح. فقد وعيت على الحفائر في بيت أمي سعدية الّتي ربتني بعد أن ماتت أمي، وروت لي حادثة موتها، لحظة ولادتي.

ـ لقد ماتت أمك وهي بتنفسك.

قالتها قبل أن تذهب إلى الحج. أجلستني يومها بجوارها بعد أن أفطرت. كان صباحاً شهياً، فالشمس لا تدخل غرفتنا إلاّ عند أذان الظهر. سميتها غرفتنا لجلوسنا فيها طوال الوقت تقريباً. فهي قلب البيت المريح، كأنما (جلالتها) الحمراء تنشر الدفء. للغرفة نافذتان؛ الأولى نحو الغرب والأخرى في اتجاه الجنوب. لا أتحكم في تفاصيل تلك الغرفة، فقد كانت جزءاً من أفكار أمي سعدية ونشاطها. وضعت على النافذتين ما تسميه ستارة. كانت تتصنّع التواضع، من دون أن تنسى أن تنظر بفخر نحو الستارة، حين كان الجيران يسألونها عن الستارة مبدين إعجابهم بشطارتها وفنها.

كنتُ أسمعها تقول:

ـ هادا ساتر بسيط سويته بسرعة!

وهي فعلاً كذلك؛ مجرد قطعة من القماش الأبيض المسدل على النافذة من الداخل ومربوطة من الأركان العلوية بمسامير دقتها بيد (الهوند) النحاسية. الرسومات المشغولة عليها هي التي تجتذب الآخرين. وبرغم بساطتها، إلاَّ أن كثرة ألوانها وأشكال أزهارها الغريبة، تجعل منها متعةً للنظر.

وضعت حول الجدار مساند الطرف الثقيلة وغطتها بلباس أبيض صنعته بنفسها، ونقشت عليه أزهاراً وأشجاراً ملوَّنة. جميع الألوان تتشابه لديها. فهناك أزهار خضراء وسوداء وأوراق للأشجار بنية اللون وحمراء وصفراء. لم أجد فرقاً واضحاً بين الخطوط الخضراء والأزهار الصفراء الفاقعة. كنت أميّز بين الرسوم، شكلاً لا لوناً. أمي سعدية، وحدها، كانت تعرف ماذا تعني هذه الرسوم. كانت تعطيني بعض الأحيان أجوبةً لا أجد لها تفسيراً. كانت تكتفي بأن تنظر إلى المسند، وتقول من دون مقدمات:

ـ غطا المسند هادا سويته لمّن كان عمرك سنة.

ـ . . .

ـ وهادا الغطا لمّن كان عمرك سنتين.

ـ . . .

ـ وهادا المسند ما كمّلته لأنك كنت مسخن يومتها وكان عمرك سنتين ونصف.

ـ . . .

عندما أود سماع قصص المساند يكفي أن أشير لها إلى المسند، فتحكي لي كيف بدأت أعمال النقش والرسم على القماش. لا تتردد في إعادة رواية كل قصة عندما أسألها، وكانت تبدو متحمسة للكلام كأنها تتحدث عنها لأول مرة. رغبتها في الكلام تزداد اضطراماً كلما شعرتْ بأنني أود سماع الحكاية مرة أخرى. وأنا بدوري أجد تلك الحماسة الأولى لسماع القصة وكأنني لا أعرفها. كانت لعبتنا تلك تُبعدنا عمّا حولنا. لم أفهمها في حينها، ولكنني اليوم أعرف لماذا كانت أمي سعدية تبدو فَرِحة بلعبة المساند تلك. فبهذه المساند كانت تعيد إلى نفسها ما فقدته من أيام لن تعود، ولحظات رسمت خلالها كل ما تتمنى من صخب الألوان. أحس الآن بأن ألوانها كان لها معنى تعرفه. لم تقله لي. أو ربما قالته، ولم أفهمه حينها.

أحياناً، أشك في أنها قالت كلماتها. تلزمني القدرة على التذكر بوضوح، وهو ما أفتقده كلما حاولت ذلك بقوة، فيتملّكُني خوف من الخطأ، وأشكك في مقدرة ذاكرتي، وأستمر في هذا الخوف، إلى أن أتعب، فأهز رأسي متناسياً ومهملاً كلَّ شيء.

في هذه الغرفة، أشعر بأمي سعدية يغمرني صوتها الحنون وعيناها الباهتتان، بدفء جميل. كانت تُجلسني في حضنها عندما تبدأ الكلام، وتسرح بعيداً كلَّما تلمّست شعري، فيتساوى عندي كلامها الذي تقوله وكلامها الذي قالته من قبل، وأستعيده في ذاكرتي. كنت أصحح لها بعض الأوقات قليلاً من الجمل في ما ترويه حتى لا تختلط الحكايات عليَّ. كنا نتساوى في الحكي كأننا نعيد صياغة القصة معاً في كل مرة. قالت مكررة قصتَها على مسمعي بعد أن شرعت في أخذ فنجان الشاي بالنعناع من طرف نصبة الشاي:

ـ داك اليوم وأنت نائم، بالصلاة على النبي، وكأنك تشوفني وأنا جالسة جنبك، تطلّعت إلى المساند وقلت لازم أغيّر شكلها. قمت وجبت علبة المكرات والإبر. وعندي من زمان كم متر من قماش التترون الأبيض. سويت مقاس المسند وقصيته، وجلست جنبك أسوي الورد. كان مزاجي أرسمك لكني ما أعرف الرسم مظبوط. وقالوا لي كمان إن الرسم هادي الأيام صار حرام. نهايته، قلت الورد والشجر هما أحسن وأسهل. اشتغلت هادا المسند في تلاتة أيام. كنت أنت فيها دائماً نائم تقوم ترضع وترجع تنام كأنك كنت عارف أنه عندي شغل وتخليني أسوّيه بلا غلبة وصياح.

تحولت غرفتنا إلى ما يشبه حديقةً مزهرةً منسوجةً من الخيوط. فالمساند محيطة بالجدران الأربعة تقريباً، ومفرش نصبة الشاي في منتصف الغرفة الأعلى، وستائر النافذة جميعها مزينة بالأزهار الملونة المرسومة على قماش أبيض ناصع. كانت ألوان الرسوم تتنافر وتتساوى فلا يوجد فرق أو معنى لتناسق الألوان، جميعها تعطي انطباعاً واحداً لأشكال مختلفة.

كان جارنا حسن نباتي يسكن في المنزل المقابل لبيتنا. كنت ألعب معه في الشارع المقابل لبيتهم. فقد كان الشارع في الحفائر يرتسم بين البيوت وتحت الرواشين كخيط رقيق يمسك بزمام الحارة من داخلها، ويعبر بها ما بين الهواء والسماء إلى أن يصل إلى خط الأفق. لذلك، فالشارع امتداد رقيق لأطراف البيت. أتذكر أنني عندما أدركت ما حولي وبدأت في الصعود والارتقاء، وبعد أن نظرت إلى السماء، أخرجت رأسي من النافذة لأنظر إلى الشارع. كان انحدار نظراتي من الأفق يصل إلى الشارع، وأتحير كيف يكون للسماء البعيدة طريق عند نهاية الشارع. وعندما أمد جسمي قليلاً وأنزل من السماء، أرى حسن نباتي

أخرج رأسه أيضاً من النافذة وينظر نحوي. كنا نتحسس بأعيننا دفقات الهواء القادمة من السماء، وانحناءات الأتربة حول البيوت، وكأننا نغرس في أحلامنا الصغيرة حكايات الدهشة من الحيوانات العابرة وألعاب الصغار المرحة.

مع الوقت، وبعدما انتزعتنا الأيام من طفولتنا، أصبحتُ، مع حسن نباتي، ندخل إلى الشارع خارجين من المنازل. فلم يكن لنا، نحن الاثنين، غنى عن أن نتحرك الحركة الحقيقية التي تبعدنا في كثير من الأحيان عن البيوت والواقع، بكل تجلياته، إلى أن نصل إلى حدود من المعرفة ندرك عندها خطر الابتعاد أكثر، فنعود يحدونا الشوق إلى التمسّح بتراب الشارع؛ من دون فهم ولا إدراك ما تعنيه نشوة اللعب والفرحة التي كانت تغمرنا.

لم أكن أنا وحسن نباتي وحدنا في الشارع فقط، بل هناك أطفال كثيرون سبقونا إليه، إلى أن أصبح استمرارنا في اللعب والتعلم في منتصف الشارع، ينبعان في الحقيقة من وسط البيوت. ومع الوقت، نما فيّ شعور بأنه من الطبيعي أن أكون في الشارع، ألعب مع الآخرين. وكانت أمي سعدية تؤكد هذا في بعض الأحيان، وتكافئني بأن تسمح لي باللعب في الشارع مدة أطول من المعتاد.

عندما تُقام الأعراس، كنا نقيم أعراساً أخرى، خاصةً بنا، في الشارع. وعندما يأتي العيد تتشكّل فرحتنا ببهائها السنوي في الشارع. وعندما تنتحب طبول المزمار ويصدح في أرجاء الليل الزومال(٦)، نكون في قمة سعادتنا.

---

(٦) الزومال: اسم يُطلق على القصائد الشعبية المغناة في رقصة المزمار الحجازية.

ليس للمتغيرات المادية في الجوار أي سبب يجعل من استمرارية التفكير في الشارع أمراً صعباً. فقد غُرس الشارع فينا وغُرسنا فيه، وأصبح جزءاً منا، لا يمكن أن يمّحي، ولا يمكن أن ننزعه من تفكيرنا. ولبساطة الحياة، أشعر دائماً بالحيرة المستمرة. فعندما كنا تقريباً في سنّ السابعة، كنت ألتقي بحسن نباتي مع أولاد الحارة لنراقب كيف يجترّ الغنم ما أكل، طوال النهار. وبعد العصر، لم يكن يُسمح لنا بلعب الكرة مع أحد الفريقين، لصغر سننا، فنوليهم ظهورنا، ونبتعد إلى أن نتحلّق بجوار مكبّ للنفايات عبارة عن بيت متهدم مهجور، نجلس على حافته أو على نتوء صخري قريب منه، نراقب الغنم وهو يجتر طعامه، بحسد ملتبس.

كنت أحتار كثيراً، كيف لا يتوقف فم الغنم عن الحركة. ففي تلك السن لم أكن أعرف معنى الاجترار. وما كان يبهجني ليس النظر إلى مجموعة من الأغنام تربض على أرض ترابية، بل احتمال مشاهدة تيس كبير يحاول مواقعة إحدى الأغنام. وهذه في حد ذاتها كانت كفيلة بأن تجعل أوقاتي ممتعة. فقد كان هروب الشاة ومحاولة التيس الاقترابَ منها، يُكسبان مشاهدتي حماسة، فأبدأ بالصياح في البداية مع الآخرين إلى أن تُبَحَّ أصواتُنا، ونبدأ حينها في الوشوشة والهمس كي لا نُفسد ما حولنا من أجواء. لطالما بدا وكأن الشمس تتحسس الموقف فتبدأ ترخي ضوءها ببطء معطية ابتهاجاً هادئاً حولنا، ليتحول الموقف إلى تكوّم طبيعي لرغبات مشتركة ترفد الحياة بالاستمرارية. هذا الهدوء ومحاولة خلق جو تتناسل فيه رغبة البقاء، كانا يتمان بنشوة فطرية لا تعرف التعلم. نعود بعدها لنخرج إلى البيت وكأننا اغترفنا من الشارع طبيعةً لا تتهادن معنا، بل تنتزع رغباتنا الطبيعية وإدراكنا لتفجرها معرفة محرّمة التداول.

ممارسة الركض والجري خلف بعضنا البعض، كانت الطريقة التي تساعدنا على استنشاق الهواء الممتع، محاولين الوصول إلى متعنا الطفولية التي نستنشقها مع ذرّات التراب المتطاير حولنا، ونسميها (شرعت)، لنستلقي بعدها مهدودي (الحيل) ومقطوعي الأنفاس، بعد أن تكون أقدامنا قد تغبّرت واتسخت بكل ما على الأرض من تراب مختلط بدماء قليلة في بعض الأحيان.

لم تكن آلامنا تحول دون مرحنا وشدة انهماكنا في اللعب، بل كنا نعتبرها أمراً عابراً لا يعني إصابةً بقدر ما يعني ضعفاً في أجسادنا التي لا تستطيع أن تخدم متعتنا الكبيرة. فعندما تصطدم قدم أحدنا الحافية بحجر ناتئ أو بقطعة زجاج كبيرة، ويسيل الدم، لا يصله الشعور بالجرح دفعةً واحدة، فقد تكوّنت لدى كلّ منا رغبة تجبرنا، وتلحّ علينا بمواصلة الجري خلف المتعة رغماً عنا. وعندما يزداد الألم وتنزلق لزوجة الدم حول أصابع القدم وفي ما بينها، وبعد أن يتراكم التراب ويبدأ في الالتصاق بالجلد، حينها فقط، يلتفت واحدنا إلى قدمه الدامية لينفض التراب سريعاً عنها، مواصلاً اللعب بعرج خفيف. كنّا سرعان ما ننسى الوجع. نستعمل التراب المشبع بالمعادن المفتتة، مرهماً وعلاجاً لجروحنا، إلى أن نصل إلى البيت. عندها فقط، نتذكر آلامنا كلها، وتلحّ علينا دفعةً واحدة، فنحاول إخفاءها متمسكين بتذكّر متعنا المتخيلة، لنعاود اللعب في الشارع في اليوم الثاني، وكأن شيئاً لم يكن.

في الشارع تعلمنا بدايات المزمار الأولى. فعندما تزوّج أحد أبناء السقاني الكبار أقيم فرح في الحفائر، وانهمك الكبار في الإعداد للحفل وتعليق اللمبات. وعندما تقاطر المدعوون وعلت ضحكات الضيوف، كنا نحن الصغار نبتعد عن مكان الاحتفال قليلاً، ونغيب في زوايا

الشارع المظلم. كان واحد منا يغافل الناس ويأخذ (كبريتاً)، بينما نحن نتفرق لجمع بعض الأخشاب المتناثرة. وعندما ننتهي، كنا نضعها في وسط الشارع، ونبدأ في إشعال النار. لم يكن يلتفت إلينا أحد، فالحفائر ساهية عنا. كلها مشغولة بالفرح، كل على طريقته، ونحن نتحلق حول النار ونبدأ الدوران تاركين المجال لأنفسنا لمحاكاة الرقص كيفما اتفق، إلى أن توافقت حركاتنا مع نشوة النار وانبهار الليل من حولنا، وبدأت الإيقاعات تتراكم وبدأنا نتشجع في إبداء المهارات. لحظتها شعرنا بتقاطر الليل مع عرقنا الممزوج بالغبار الحار ولهاث أنفاسنا. ظللنا كذلك إلى أن تراجعنا للعشاء تسبقنا صيحاتنا بمرح.

كل هذا وأنا أوزّع خطايَ في الشارع وأطوف بين البيوت، أتمسَّح بجدرانها، بسكينة، من دون أن أدرك سبباً واضحاً لذلك.

كان المطر؛ تلك النعمة القادمة من السماء، يغسل هواء الشارع قبل أن يصل إلى (مرزاب) بيتنا، وقبل أن يلامس جسدي، فيحيل الحفائر إلى فرح غامر تتفرق فيه الروائح المحمّلة بالرز والعدس الساخنين. كانت قشعريرة الدفء تدغدغ قلبي وأنا أجلس مع حسن نباتي بجوار ستي معتوقة، وأمامنا أبي، نتحلّق حول (تبسي) الأكل مزدردين اللقم المغطاة بالحُمر (التمر الهندي)، وكأننا لم نر مطراً وبَرَداً من قبل. كنتُ أحسُّ بالبَرَدِ عند هطوله، يشبه اللآلىء السماوية التي تُهدى إليَّ قبلَ أن أطلبها. إنه مفاجآت الغيوم العابرة فوق رأسي، المنتصبة في منتصف الشارع. كنت أتبارى مع حسن نباتي في الهروب من المطر محاولَين الإمساك بالبَرَد قبل أن يصل إلى الأرض، مندسَّين تحت أحد الرواشين، ومادَّين أذرعنا إلى السماء ابتهالاً. هذه البهجة جعلت للشارع في نفوسنا رسماً له ألوان وحكايات، لا نعرف كيف بدأت ولا أين انتهت.

عندما عدت يوماً من الشارع مع حسن نباني، شاهدت والده (بكرشه المتدلّي أمامه) واقفاً أمام مدخل البيت سائلاً ابنَه حسَناً:

ـ أنت ما رجعت البيت لدحين؟

ـ . . .

ـ فين كنت؟

ـ كنت ألعب مع محمود في الخرابة.

ـ خرابة؟ أنت ما تتعب من اللعب.

ـ . . .

ـ ادخل بسرعة وغسّل رجولك.

ـ طيب.

التفت إليّ والده متسائلاً:

ـ كيف حالك يا محمود، وكيف حال أبوك؟

ـ طيب.

ـ ياللّه ادخل بسرعة تلاقي أمك دحين تدور عليك.

ـ طيب.

طرقت الباب مسرعاً بعد أن لمع في رأسي سؤال. كان حسن نباتي يسكن مع والديه، بينما أنا أسكن مع أمي سعدية في بيت، وأبي يسكن في بيت آخر. فتحت أمي سعدية الباب فسألتها مباشرة عن أبي، ولماذا تسكن هي في بيت وهو يسكن في بيت آخر. هذا الوضع حيّرني، ولحظتها لم أجد جواباً. كنت مرتبكاً وأنا أتساءل. أنظر إلى وجه أمي سعدية وهي تتنهد مبتسمة. بدت لي وكأنها تتهرب من الإجابة. سألتها مرة أخرى بعد أن (حممتني) وبدأت في مساعدتي على ارتداء

الملابس. لم تُجِب، بل ظلّت تنظر إليّ صامتة. سألتها مرة ثالثة فتطلعت إلى السقف الأبيض وأنا أنظر إليها، ثم نظرت نحوي. عندها شعرت كأنها ستقول سراً. فعندما تكلمت غابت من أمامي وتشكّلت في اللحظة نفسها، وانقضت لحظات طويلة قبل أن تتفوه بكلماتها البطيئة:

ـ أنا زي أمك يا محمود...

ـ ....

ـ أمك ماتت وهي بتنفسك...

ـ ....

ـ لكن ولا يهمك، أنا أمك الثانية.

ـ ....

قالتها وكأنها تتحدث عن نفسها. تهدجت الكلمات في فمها. احتارت وغابت عني متذكرة نفسَها. زادت رائحتها المعطرة، كأنَّ جسمها حينها، أطلق أبخرته النظيفة حولها، وتسارعت أنفاسها. لم أتكلم. لم يكن هناك مجال للحديث. صمتها بدا كلاماً حزيناً. في بعض الأوقات أجدها تتقوض بلا صوت وكأنها تهوي في فضائها بلا رجعة. فهمت لحظتها القليلَ، ولكن شعورها بالحزن لم يجعلني أردد على مسامعها السؤال مرة أخرى، خصوصاً أنني لم أجد فرقاً كبيراً بين أن يكون أحدنا بلا أم وأن يتربّى معها. ما رسخ في ذهني هو نظراتها الحزينة. حاولت أن أهرب من أمامها مسرعاً بعد أن اكتسبت نشاطاً مؤقتاً بذلك الحمام البارد، فذهبت إلى المطبخ بحثاً عن الماء. لم تنجب أمي سعدية أطفالاً وليس لها أقارب، أو هكذا بدا لي. إذ لم يزرها أحد غير أبي والجيران. كانت طيبة حتى تبدو للآخرين بلهاء.

تقوم بخدماتها بصورة طبيعية جعلتني أعتبر الواجب سلاحها الأكبر والوحيد الذي تُقنع به نفسَها ومَن حولها. تحضر حفلات الزواج باعتبارها جزءاً من عائلة العريس، وفي الوقت نفسه ترى نفسها أهمَّ أفراد عائلة العروس. وتقف عند كل قرار أو مشكلة بسيطة في الحفل محاولةً تبسيطَ كل الأمور. تفتح غرف المنزل جميعها بكل ما فيها من أثاث وملابس وكأنها تعد لزواج ابنتها، مظهرةً الفرحةَ على وجهها عندما تنظر إلى العريس كأنه ابنها البكر. لم تكن تهدأ؛ تتركني ألعب مع الأولاد وكأنها لا تعرفني. اعتاد الجيران على طيبتها. لم تكن تتوقع من أحد أن يشكرها. كانت تتحرك ببساطة من دون أن تفكر في مقابل. ما أن تعرف إمكانية المساعدة حتى تقوم بكل شيء. لا تحب أن تُشكر على أي عمل تقوم به، وتعتبر هذا نوعاً من المجاملة لا داعي له، فما قامت به واجب لا غير. لذلك عندما توفيت أمي لم تتردد لحظة في أن تتقدم من أبي قبل أن يدفن أمي، وتخترق، هي المرأة المحافظة، جَمْعَ الرجال، قائلةً له:

ـ سآخذ محموداً لأربيه عندي.

ـ . . .

لم يجبها والدي. نظر إليها فقط، ثم أحنى رأسه موافقاً.

كانت تنسى نفسها في أحيان كثيرة من شدة انهماكها في أداء الواجب. فعندما انتقلت إلى بيت زوجها في الحفائر اجتمع في بيتها كل نساء الحفائر تقريباً يباركن لها مسكنها الجديد ويساعدنها في ترتيب (العفش) وتوزيعه.

كان البيت مبنياً بالاسمنت ويقع قبل نهاية شارع التمارة. كان عبارة عن دورين، وغرفه موزعة كيفما اتفق مع مزاج معلم البناء، الذي كان

في الوقت نفسه مخطّط البيت ومنفذه. الدور الأرضي يتألف من ثلاث غرف وحمام، والشيء نفسه في الدور الثاني. أما على السطح فشُيِّدت غرفة مبيت وحمام.

عندما تهمّ أمي سعدية بتنظيف البيت، كانت تبدأ من السطح واضعة سطل الماء في أعلى الدرج، ثم تقرفص رجليها لتقوم باستعمال مغرفة من (التوتوه) فتغرف الماء بيدها اليسرى، وفي اليمنى تمسك بمكنسة (الخصف) داعكةً بها (طبطاب) الدرج. كان الماء ينساب على الدرجات الأخرى إلى أن يصل إلى أوّل الشارع. كانت تستهويني هذه العملية خصوصاً عندما ينهمر الماء من أعلى، فأجلس متعمّداً أن ابتلَّ بالماء، وتتبلَّل ملابسي، حتى أشعر بانتشاء المطر. كانت أمي سعدية لا تحبّذ متعتي هذه فأسمعها تكلمني صارخة:

ـ قوم يا عفريت من الموية الوسخة...

ـ ...

وعندما أنظر إليها مبتسماً كانت تفتح عينيها على اتساعيهما، وأسارير وجهها منبسطة:

ـ شوف الواد كأنه ما يسمع... قوم.

ـ يا أمي الموية نظيفة... أنتِ تغسلي بموية وسخة؟

ـ شوف شوف... قوم بلا طولة لسان.

ـ خلّيني شوية يا أمي... الدنيا حر.

ـ أقول قوم بسرعة قبل ما أجيك وأوريك شغلك.

ـ ما تقدري؟

ـ واللّه عال... أنت تعلمت هادا فين يا ملعون؟

لا أجيب، بل أنزل ضاحكاً إلى أن أصل إلى الدرجة الأخيرة وأجلس منتظراً انهمار الماء. عندما تصل إليّ أكون مبتلاً تماماً، وأصبحت ملابسي ثقيلة، فتمسك بي من أذني، مترفقة، وتقودني إلى الحمام ولسانها لا يتوقف عن كلمات التهديد الكاذبة التي اعتدت على سماعها كل أسبوع.

كانت (تمسّد) شعري بعد أن أكون قد قضيت النهار كله لاعباً أمام باب البيت. أعود إلى البيت (لتحممني) وتلبسني ملابس خفيفة من الشاش الممزق تحت الإبطين. تسند ظهرها إلى أحد المساند وتمدد رجليها فأضع رأسي فوق فخذها، بينما هي تبدأ بمداعبة شعري إلى أن أنام. كانت لا تكفُّ عن الهمس، وغناء بعض الأغاني الجميلة، التي كنتُ أحب سماعها منها:

محمود حمادة... فيده قلادة

تحوم وتخفي... كلام عبادة

تقول وتحكي... حياة سعادة

وتضحك وتبكي... كل يوم عادة

تنام وتصحىٰ... وتحلم زيادة

لا تصل إلى هذا الجزء إلاً وأنا قد سرحت أو نمت تماماً، لأجد نفسي في صباح اليوم التالي ممدَّداً على (الطراحة) القطنية، بينما هي في المطبخ لا أعرف ماذا تعمل. سألتها عدّة مرّات عن سبب دخولها المطبخ منذ الصباح الباكر. لم تكن تجيب مباشرة، وفي بعض الأحيان يفتر ثغرها عن ابتسامة باهتة، ثم تقول متنهدة:

ـ المطبخ شغلة الحريم.

ـ يعني إيش؟

ـ يعني شغلة الحريم الين ما يموتوا. . فتح مخك!

ـ . . .

أنظر إليها من غير أن أفهم شيئاً، لأعود إلى اللعب بما جمعت يوم أمس من علب فارغة وأغطية البيبسي، فأبدأ بعمل العربة بكل همة ونشاط ناسياً جميع من حولي. هذه العربة ليست سوى صندوق الشاي الفارغ.

عندما كانت (تدرهني) إذ تنطرح على ظهرها وتسندني إلى ساقيها المضمومتين إلى فخذيها، تبدأ تغني لي أغنيتي المفضلة:

دوها يا دوها. . . والكعبة بنوها

سيدي سافر مكة. . . جبلي صندوق كعكة

والكعكة في المخزن. . . والمخزن يبغي مفتاح

والمفتاح عند النجار. . . والنجار يبغي خشب

والخشب عند اللبان. . . واللبان يبغي لبن

واللبن عند البقرة. . . والبقرة تبغي برسيم

والبرسيم في الجبل. . . والجبل يبغي مطر

والمطرة عند ربي

يا مطره حطي حطي. . . على قرعة بنت أختي

بنت أختي جابت ولد. . . سمته عبد الصمد.

وتصرخ عندما تنتهي وترفعني عالياً، فتدور الدنيا مع صراخها وصراخي، فأرى كل محتويات الغرفة قد انقلبت رأساً على عقب.

المساند و(الليانات) و(التكايات) و(المخدات) وكأس الماء الفارغ، وحتى الجلالة الحمراء المزركشة، جميعها تتطاير فوق رأسي، وكأن الأرض اختفت وصرت أسبح في الهواء الساكن حولي. تنزلني بعدها، فأكون قد فقدت توازني، فأغمض عيني لأعانقها وأنصت إلى تنفسها المرتبك وأنفاسها المتلاحقة. صدرها يرتفع وينخفض بقوة كأنها صعدت جبلاً عالياً. من بين أنفاسها المتقطعة تهمس وهي تعانقني بقوة:

ـ تعبّتني يا ملعون.

استقبلتُ العالم بين يدي أمي سعدية. كانت فرحة جداً بي. البيت الذي تسكنه ملاصق لبيتنا. تفصل نافذة المقعد بين باب منزلها وباب منزل والدي. كنت دائم التعلق بهذه النافذة. أضع صناديق الشاي الخشبية الفارغة وأصعد عليها لأتمكن من الإمساك بطرف النافذة، فتندفع أمي سعدية إلى النافذة، بعد أن تشعر بحركتي المنهمكة تلك، صارخة:

ـ يا عفريت... انتبه لا تطيح وتتعور!

ـ ما أطيح... روحي أنتِ بس.

ـ يا واد بلا عفرتة... انزل.

ـ ماني نازل.

ـ انزل قبل ما أزهم على أبوك.

كنت أجيب معانداً. فأنا أعرفها لم ولن تناديِ على أبي مطلقاً، بل كانت هذه الكلمات شيئاً عادياً، تقولها من غير أن تشعر بها. مجرد كلمات تُقال ضمن انفعالها وخوفها عليّ. فهي لم تقل لأبي عندما انكسر إبهام قدمي وذهبت بي إلى عم حسنين جبيرة ليكشف على

الكسر ويجبره. لم يعرف أبي الأمر مباشرة. الصدفة قادت عم حسنين جبيرة إلى دكان أبي شاكياً من ألم في ظهره، وراغباً في الحجامة. وضع أبي كأس الحجامة مكان الألم. عندها سأله عم حسنين جبيرة عن أخباري وعن حال إصبعي المكسور. لم يُجِب أبي مباشرة حتى أعاد السؤال ليجيب باقتضاب:

ـ بخير... ما فيه إلاَّ العافية... أنت لا تتحرك عشان الدم الفاسد يصفى بسرعة.

ـ ....

ذهب بعدها أبي مباشرة إلى أمي سعدية مستفسراً، فأجابته بأن الإصبع شُفي تماماً. كنت لحظتها داخلاً المقعد فسمعتهما يتكلمان. لم يكن والدي مهتماً كثيراً بإصبعي بقدر اهتمامه بوجوب أن يعرف. يبدو أنه لا يعرف ماذا يحدث لابنه؛ وهذا أمام الناس شيء لا يُعقل من رجل فاهم وعاقل ومتزن!

لذلك كانت كلماته لأمي سعدية قوية وواضحة عندما قال لها:

ـ لمّن ينكسر للواد شي لازم تقوليلي قبل أي واحد... مو أسمع من الناس؟

ـ إن شاء اللّه ما يصير شي... والواد سليم والحمد للّه... أنت بتفاول على الواد؟

ـ أنا أقول اللي لازم يصير... عشان تعرفي!

ـ أنا عارفة وإن شاء اللّه ما تجيك غير الأخبار الحلوة... بسلامته إن شاء اللّه.

ـ طيب مع السلامة.

ـ وه. . . وه. . . أنت رايح من غير ما تشرب الشاي.

ـ يا ستي إحنا جيران وهذا واجب الأغراب. . . مع السلامة.

خرج سريعاً وكلمات أمي سعدية تلحق به من غير أن يسمعها.

لا أعرف زوج أمي سعدية، فقد توفي بعد ولادتي. أسمع، فقط، أخبارها الكثيرة عن المرحوم؛ «اللّه يرحمه»، كما كانت تصفه. استطعت أن أتخيله بقامته المديدة وطلعته البهية، كما كانت تقول. لم أسمعها تذكر اسمه مطلقاً؛ حتى أنني في سن ما حسبت أن اسمه المرحوم! لم أسألها أنا عن اسمه، وهي لم تذكره.

كنت أشعر بأنفاسها كثيراً عندما أنام جوارها كل ليلة. تحكي لي عن كل شيء، وكثيراً ما كانت تنظر إليّ فجأة، قائلة:

ـ محمود لمّن تكبر لا تنساني.

لم أكن أجد سبباً لكلامها هذا الذي تقوله أحياناً، في الأوقات التي أكون فيها فرحاً وسعيداً جداً لوجودها قربي. كنت أُصدم بطلبها هذا. أتساءل كثيراً لماذا تطلب مني عدم نسيانها عندما أكبر. هل النساء عندما يكبرن ينسين بعضهن؟ عندما سألتها هذا السؤال نظرت بعيداً سارحة لبرهة، ثم التفتت نحوي مبتسمة ساهمة:

ـ يا محمود أنت صغير ولمّن تكبر تعرف.

ـ ومتى أكبر؟

ـ لمّن تكبر أنت حتعرف لوحدك. . . محد يقولك أنك كبرت.

أمي سعدية كانت تذهب كل سنة إلى الحج. لم أشعر بها سوى مرة واحدة؛ كانت المرة الأولى والأخيرة أشاهدها فيها تذهب إلى الحج. السنة التي قبلها لم تستطع الذهاب إلى الحج. كانت مريضة

وزاد بكاؤها من مرضها وهي تسمع تلبيات الحجاج. عزمت على الحج السنة التالية بإصرار. كنتُ قد بلغتُ الخامسة. سألتها وهي تتجهز للحج:

ـ ليش يا أمي الناس تحج؟

ـ عشان ربنا يغفر لهم ذنوبهم.

ـ لكن أنت طيبة؟

ـ يا حبيبي يا محمود.

تركت ما بيدها وضمتني، وأخذت تقبلني. كان صوت الشيخ عبد اللّه خياط يتلو القرآن. سمعته مرتفعاً عبر الراديو القديم قبل أذان المغرب. لا أدري لماذا شعرت لحظتها بحزن. بكيت وقتها بصمت من غير أن أدرك سبباً محدداً، غير رغبتي المفاجئة في البكاء.

عندما ذهبت إلى الحج ولم تعد، أدركت أنني أصبحت وحيداً. كانت تقول قبل ذهابها:

ـ كلها ثلاثة أو أربعة أيام، أنا راجعة.

ـ بس.

ـ أيوه. . . استنّاني عند الباب. . . اجلس عند العتبة واستنّاني تلاقيني جيت ومعاي لك هدية حلوة زيك.

جلست عند العتبة أربع سنوات أنتظرها. كل يوم قبل المغرب أتوقف عن اللعب وأذهب جرياً إلى أن أصل إلى باب البيت المغلق وأجلس عند العتبة أنظر إلى الوجوه القادمة. لم أشعر يوماً بأنني أضيّع وقتي في انتظار من لا يجيء. كان أملي أن أراها يقيناً. فقد قالت إنها ستعود. إذاً، هي قطعاً ستعود. لم تخلف وعدها يوماً. لقد سقت فيَّ

هذا الشعور. لم أكن أتصنع أو أشك في شيء؛ لذلك انتظرتها أربعين عاماً في الحفائر. لم أستطع أن أترك مكة خوفاً من أن تأتي ولا تجدني. بقيت في البيت نفسه، ولم أتوقف عن انتظارها حتى بعد أن عُيِّنْتُ مدرساً. كنت قبل المغرب أفتح النافذة وأنظر إلى العتبة، والباب المغلق. أتطلع بعدها إلى الوجوه القادمة من مدخل الزقاق. لم أفقد الأمل إلى هذه اللحظة بعد أن بلغتُ الخمسين. لا زال صوتها يتردد في أذني وأنفاسها تلامس خدي. رائحتها تعبق في المكان وكأنها كانت هنا قبل لحظات. لم يعرف أحد لماذا لم تعد؟. هل ماتت ودُفنت في منى؟. لا أحد يجيب. لم أبكها أمام أحد. كنت أسألهم عنها فقط.

■ ■ ■

تمنيت أن أصرخ بعد أن أفقت من سهومي. كنت ممدداً على السرير وضوء المصباح يعطي محتويات الغرفة لوناً ذهبياً، فتبدو الأشياء وكأنها تصرخ من القهر بالقرب من أذني كي أستيقظ. هززت رأسي بشدة وعيناي مفتوحتان على اتساعيهما. أين أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ ومنذ متى؟ كانت هذه التساؤلات تضجُّ في هلاميات أفكاري، والضوء يملؤها قوة.

أزحتُ ظهري عن الجدار، ولكني عدت إليه مباشرة. تملّكني ألم شديد في ظهري، صرخت بسببه، وأعادني الخوف منه إلى ما كنت عليه. كانت صرخة ألم لم أسمعها، فقد انفجرت بقوة بددت الصوت وجعلتني أشعر بها فقط. اكتفيتُ بعدها بمحاولة تهدئة الألم واسترجاع ذاكرتي. حركت رأسي عسى تتسرب الأحداث أو حتى خيالات باهتة. هززت رأسي بألم، فهآنذا أفقد صوابي كلّما أحاول أن أتذكر. تتحول ذاكرتي إلى اسفنجة أعتصرها مقطعاً الأعصاب حولها، فإدراكي أن الزمن قد ملأها بالأحداث، يدفعني إلى الاستمرار. وهي عندما تجف تتهشم بسهولة، فأتحوّل عندها إلى شخص بلا ذاكرة. وهذا يرعبني إلى حد الجنون.

هدأ ألم ظهري، فاستطعت أن أبتعد عن الجدار. عاد إلى ذهني

شريط البارحة ممزقاً متناثر الأجزاء، فأخذت تجميع أجزائه إلى أن تكشفت جثة سراج الأعرج ممددة عند قدمي. استجمعت أحداثاً أكثر ونهضت ببطء إلى أن استويت واقفاً. جلتُ بنظري حولي. بدت الغرفة غريبة عن ليلة البارحة بعد أن اكتست بهالة الضوء الذهبية، فأصبحت لها أبعاد مضيئة جديدة لم تكن موجودة من قبل.

«إذاً، هذا سراج الأعراج بعد أن مات». ترددت هذه العبارة في رأسي وأنا أنظر إلى جثته الممددة أمامي. ظهرت منتفخة بعض الشيء وكأن الضوء قد نفخ فيها من حره. فقد انفتح فمه واتسع أنفه والدم ازداد سواداً. ذكّرتني جلستي هذه بوقفتي القديمة عند طرف الساحة.

شعرت بأنني توقفت عند طرف الساحة الواسعة والممتدة في طرف مكة الخفي. خلاء كبير يمتد حتى الأفق. أتطلع إلى الجثث المنتشرة كيفما اتفق. بساط من الأجساد الممدة يحجب كثيراً من النباتات البرية المنتشرة. كانت معركة كبيرة مع أهل مكة. تتراءى لي من بعيد مسيرة العبيد تدمدم ويرتفع غبارها منتشراً في الأفق كضباب قاتم، ليظهر قرص الشمس ملتهباً ببرودة غامضة. انتشرت بعض العمائم الحلبية مفرودة وبعضها ملفوف بلا رؤوس فبدت كأنها تبحث عنها. الرياح أخمدت أنفاس المتحاربين فلا يُسمع سوى صفيرها بين العظام. كانت المعركة قد استمرت يومين، أُتخِمَتْ بعدها الأرض بالدماء القانية. لف سكون موحش الساحة فلا يوجد أنين أو همس. كلُّ ما بقي بقايا جثث متعفنة وفروع لأشجار يابسة تتلاعب الرياح فوقها بلا صوت. لم يخرج أحد بعد المعركة، من منزله ليومين، ربما حداداً وربما تأكداً من موت الجرحى، وظلَّ الناس يتوجسون الاقترابَ من أرض المعركة لمدة أربعة أشهر.

عندما وجدت نفسي في طرف الأرض، كانت بعض بنادق البارود

تَظهر أطرافها المتكسرة من بين التراب. لم يكن هناك جثث مكتملة؛ إنما عظام مغطاة بملابس ممزقة كيفما اتفق. هبت نسمة هواء قوية حرّكت الأظافر الجافة فارتفعت أصوات حركتها بحزن مكتوم ونواح خفي متجاوبة مع الألم المنثور فوق التراب؛ لتسمى المنطقة أمَّ الدود بعد ذلك. هززت رأسي ممزقاً ضوء الشمس ومُسكتاً تلك الأصوات البعيدة والممزوجة برائحة العبيد المنهَكين من السير بلا توقف. كان خيط العبيد المتحرك يبدو من بعيد كخيط من النمل الأسود المجتهد في السير من دون أن يعرف الآخرون إلى أين يذهب. لقد أصبحوا كثيران الساقية، معصوبي العيون، ومنهمكين في ترحالهم المستمر مدى الحياة، لا يدرون سبباً لسفرهم الدائم هذا.

هؤلاء العبيد يتشكلون أمامي وكأنني سيدهم. أستمطر عليهم اللعنات. لقد سئمت بلاهتهم هذه. كيف يعبرون أمامي هذه الغرفة بمسيرتهم العمياء تلك. يداخلني إحساس بأنهم يرغبون في عمل شيء ضدي، ربما ليدفعوني إلى التصديق بوجودهم. أنا متأكد من أنهم مجرد خيالات غائرة هناك في عمق الذاكرة. عندما بدأ الشك ينتابُني، راودني إحساسٌ بالقرف من هذه الروائح الكريهة من حولي. خرجت من الغرفة هارباً من رائحة كريهة تصاعدت إلى أنفي، ومشيت باتجاه الحمام لأستقبل رائحته العفنة بقرف لا يحتمل. رجعتُ مهزوماً إلى مكاني على السرير، أتربّع فوقه سانداً ظهري إلى الجدار، محتاراً في ما حصل، ناظراً إلى السقف بلا تفاصيل. مجرد نظرات خالية من البحث عن شيء، فقط للاستمرار في التفكير، إلى أن قفزت غرفة الحجامة إلى ذهني. كانت مغطاة بسقف بلا ملامح؛ مجرد سقف يحتفظ ببقايا صور لا مصدر لها سوى أنها تحركت تحت ناظريه.

فبعد اختفاء أمي سعدية عدت إلى أبي الذي أدخلني المدرسة بعد

سنة. أمضيت تلك السنة داخل غرفة الحجامة معظم النهار.

كان أول شيء فقدته عندما عدت إلى والدي هو رائحة أمي سعدية بالرغم من الروائح المختلفة التي يعبق بها البيت. رائحتها الباردة لا تزال تتمسح في أنفي، ولا يزال يُبهرني بريق ابتسامتها الهادئ.

كل الغرف لها روائحها الخاصة بها. ما يميّز غرفة الحجامة هو مساند الطرف ورائحة متخثرة تفوح من الكؤوس وأدوات الحجامة. كانت غرفتي التي نقلت إليها ملابسي القليلة، مشبعة برائحة الشمس الجافة وأخشاب النافذة المتشققة، بينما بعض الغبار ينشر رائحته في الأركان وجوار بيت العنكبوت في طرف السقف البعيد عن الباب. لا توجد رائحة كثيفة (لطبطاب الأسياب) الاسمنتي وإن كانت رائحة الرطوبة تنبعث من الظلام البارد. فوق السطح كانت بعض الأخشاب القديمة وصفائح الزنك العتيقة تصنع فاصلاً بدائياً يقسم السطح إلى نصفين من غير باب، إنما فتحة خلع الهواء بابها قبل انتقالي إلى البيت. ما يزال الباب ملقى عند طرف السطح بمفصلاته الصدئة، ومسامير كبيرة معوجّة معلقة به.

كان أبي يعتبر نفسه رجلاً من رجال ذلك الزمان!

ذلك الزمان الذي يبدو لي دائماً صعباً، وما شاهدوه شيءٌ لا يمكنني احتماله مهما كانت قدرة احتمالي كبيرة!

ذلك الزمان الصعب ينتج دائماً رجالاً حكماء لا يدرك حكمتهم إلاّ من (جايلهم) في العمر، ومن عاش معهم ذلك الزمان بكل دقائقه وثوانيه!

كان أبي رجلا لا تستطيع أن تتبين ملامحه الداخلية مهما حاولت. عاش أسوأ الفقر، وعاش أجمل الفرح، وما نحن الآن سوى محرومين

مرتمين على طرقات الزمان العجيب الذي نعيشه معهم عبثاً لكي نعيش، وهم ينظرون إلينا ونحن نعبر الطرقات بينما هم أصحاب المنازل الكرماء يتفضلون علينا بحكمتهم التي أنتجوها بمساعدة ذلك الزمان الماضي العظيم!

كان تصرفه مقيداً بالزمن. فعندما يضربني بلا سبب فالمستقبل هو الذي سيُنبئني عن السبب. وعندما يضرب بسبب يكون الماضي الذي لا أتذكره (دائماً) هو الشاهد على أنه نصحني قبل أن أخطئ ولكنني لم أسمع كلامه. كثيراً ما كنت أبحث في الماضي عن كلماته الناصحة تلك فلا أجدها، بل أتحسس مواقع الضرب المتورّمة، بصمت. وعندما لا أجد سبباً أجد أن الحاضر قد أتى ليعلمني ويربيني بطريقته.

كان رجال ذلك الزمان يتقنون استخدام الزمان على طريقتهم الخاصة وكأنهم حراس يقفون على بواباته، يفتحونها لمن أرادوا ويغلقونها دون الآخرين! عندما يبتسم والدي لا أعرف هل هذا لأنه تذكر شيئاً من الماضي، أم بسبب استمتاعه بالحاضر، أم لأن المستقبل قد تشكل أمام ناظريه. كنت أتساءل دائماً إن استطعت يوماً أن أرى ابتسامته بوضوح. لم تكن البساطة الدائمة مرتسمة في عينيه. أجده دائماً يتوقع مني أن أعرف أشياء كثيرة لم أسمع عنها ولم يعلمني بها أحد، والمزعج في الأمر أنني أُعاقَب عندما لا أعرفها!

كنت أُضرب بسبب أشياء كثيرة لم يقلها لي أحد، لمجرد أن أبي يعرفها من زمنه الماضي العتيد، ومن ثم اعتادَ عليها ويطالبني بأن أعرفها وأقوم بها كما أتنفس، أو كما أمشي في أحسن الأحوال. لم يتعلموا في مدارس. ربما قرأوا القرآن في الكُتّاب. ربما الفقيه أنعم عليهم بعصاه اللينة. ولكن ما ذنبنا في أن نحاسَب بجهلهم وبقلة

حيلتهم أمام معلمهم. والمحزن في الأمر أننا نُضرب في البيت، ونُضرب في المدرسة!

في أول يوم ذهبت مع أبي إلى المدرسة كان منتفخاً كأنه صنعني قبل دقائق؛ لم يهدأ طوال الطريق مرسلاً كلماته القاسية إلى أذني:

ـ انتبه على نفسك.

ـ . . . ؟

ـ لازم تبيّض وجهي.

ـ . . . ؟

ـ لا تتشيطن مع العفاريت.

ـ . . . ؟

انتبه للاستاد.

ـ . . . ؟

ـ لا تتكلّم كثيراً.

ـ . . . ؟

تعلم بسرعة.. ولا تكون حمار.

ـ . . . ؟

حاولت أن أسأله عن هذه العبارة؛ كيف أفهم بسرعة، لكنه لم يمهلني. كانت خطواته كبيرة وأنا أجري لكي ألحق به. كان ممسكاً بيدي فيبدو وكأنه يسحبني. شعرت برغبة في التساؤل فضغط على يدي وأسرع في خطواته متابعاً نصائحه من غير أن ينظر إليّ:

ـ لا تتضارب مع الأولاد.

ـ . . . . ؟

ـ لا تتعفرت في الحصة.

ـ . . . . ؟

ـ لا تلعب في الفصل.

ـ . . . . ؟

ـ لا تأكل في الفصل.

ـ . . . . ؟

ـ اقعد على فعرك واسمع كلام الأستاد.

ـ . . . . ؟

ـ انتبه تشرد من المدرسة.

ـ . . . . ؟

. . . وأشياء كثيرة لا أتذكرها الآن. لم تكن تهمني الكلمات بقدر ما كنت أحلم بأن يبطئ والدي في مشيته السريعة تلك. كانت كلماته تنطبع في ذهني كصورة كفه الكبيرة وخطواته الواسعة وركن المدرسة الذي كدت أصطدم به بعد أن تفاديت الارتطام به في آخر لحظة. لم أكن منتبهاً تماماً لما يعني بعباراته وتهديداته تلك، ولكنني أجاهد كي ألحق به. كنت أقف إلى جواره مرتجفاً من تهديداته التي لم تنته إلى أن وقفنا أمام المدير الجالس وسط جمهرة كبيرة من الكؤوس والصور واللوحات الجميلة. وبعد كلمات كثيرة لم أحفظها إذ كنت ألتقط أنفاسي من الركض الصباحي الذي مارسته جارياً وراء والدي، سمعته يتفاخر مبتسماً:

ـ ولا يهمك يا أستاد. أنتم لكم اللحم وأنا لي العظم.

ـ . . . يا عم مسعود أنت راجل يقدر العلم.

قال المدير كلمات كثيرة أجهلها تماماً، ولم أدرك ما تعنيه، فقد سمعتها لأول مرة ولم يرسخ منها شيء في ذاكرتي.

بهذه الكلمات المبهمة استقبلتني المدرسة، وأبي يقف جواري ممسكاً بيدي كخروف العيد، وأنا أنظر إليهم لا أعرف ماذا سأفعل في هذه المدرسة؟ وكيف ستكون؟ وماذا ستفعل بي؟ ولماذا يجب أن أذهب إليها؟ ولماذا أنا أقف بينهم أصلاً؟.

كان أبي يرسم لنفسه صورة تعلّمها من الناس. فالناس يجب أن يروه بهذا الشكل، والناس يجب أن يعرفوا قَدْره، والناس لا يجب أن يشمتوا به، ولا يجب أن تقول عنه الناس البطال، والناس. . . والناس. . . لقد أصبحت أبحث عن هؤلاء الناس العظام الذين يجب أن نخافهم. لم أجرؤ على سؤال والدي عمن يقصد بالناس، ولكن، كما يقول أبي، الزمن أنبأني بأن الناس هم المحيطون بنا، لقد كنا نقتل أنفسنا بأيدينا. نخنق أنفاس بعضنا من غير أن نعرف.

كنت أتعامل مع الدراسة بوصفها شيئاً مسلياً يبعث في النفس إحساساً غريباً عن العالم المحيط. أبتعد عمن حولي ببطء وكأنني أركب منطاداً أنفخه بأنفاسي الحارة. لم تعد لضحكات الصغار رجع عميق أسترده بصدق، وأعتمد عليه عندما تهب الريح الحارة. كان ابتعادي المستمر يضايقني في بداية الأمر، فقد كنت أشاهد أبي يختلف، ولم يعد كما كان قبل أن أذهب إلى المدرسة، وأصحابه أيضاً أصبحوا، بكروشهم تلك، كأنهم قادمون من الأحراش. حتى زملائي في الحارة بدوا وكأنهم يتعلمون مشية الغراب بما يتشدقون به من كلمات أغلب الظن أنهم لا يفهمونها. صار الابتعاد جزءاً من أيامي،

كلما زادت انغمستُ أكثر داخلها، إلى أن أصبحت أجد في الابتعاد متعة أحلّق معها كل يوم.

واصلت النجاح في المدرسة. ولكن رغبة النجاح تحولت، من تحقيق القدرة على الإنجاز إلى خوف من العقاب مظلم. كنت أرغب في النجاح وكأنني أهرب من الجلّاد الذي خلفي. السنة الوحيدة التي رسبت فيها كانت في الصف الرابع. لم يكن يعنيني النجاح قبلها. حتى الرسوب لم يكن يشكّل شيئاً. كانت الأمور عندي عادية لا طعم لها. كنت أتصنع الفرح لأنني أرى الناس حولي مبتسمة وتتقافز بشهاداتها. تقافزتُ بشهادتي في البداية ولكنني شعرت بسخف الحركات فاكتفيت بالتظاهر بالفرح. عندما رسبت تلك السنة دخلتُ البيت هادئاً كما تعودت كل مرة، وأعطيته الشهادة من دون أن أتكلم. رسبتُ في مادة واحدة هي القرآن. كنت أحفظ السور المقررة لكن المدرّس أصر على عدم حفظي لها. . . لم أتكلم معه بل اكتفيت بالعودة إلى مقعدي. كانت هذه الحركة كفيلة بأن تجعلني أردد آيات القرآن مدة الإجازة الصيفية محلوقَ الرأس. حينما شاهد أبي الشهادة مزهرة بدائرة حمراء واحدة اقترب مني وصفعني على خدي في غفلة مني. خفت من المفاجأة أكثر من الكف. فقد كانت يده ملطخة بالدم. نظرت إليه ولم أتكلم. اقتادني إلى عم زكريا الحلاق وطلب منه أن يحلق لي بالموسى (صلعة). كان الوقت ضحى عندما اقترب مني عم زكريا بعدته القديمة. بداية، بلل شعري بالماء وفركه جيداً ثم أخرج (الموسى) من بين الأدوات وأخذ يسنّنها بحزام الجلد المتدلي من وسطه؛ شعرت خلالها بأن الماء بدأ ينساب جوار أذني. لم أشعر به يقف فوق رأسي، كنتُ كأنني في حلم. . . في كابوس، ولم أفق إلاً وهو يمسك رأسي الصغير جازّاً شعري، حينها أحسست بالهواء يلمس جلدة رأسي باستغراب شديد.

عدت إلى والدي أحمل صلعتي المخضرة وأنا أتحسسها متسغرباً. عندما أطللت عليه من الغرفة، وكانت مليئة بالزبائن المحجومين، سمعت همهماتهم. أحدهم توسَّل أبي ألا يضربني:

ـ باللّه يا مسعود لا تضربه. تراها مادة واحدة ويقدر يدفها في الإكمالي.

ـ . . .

لم يتكلم حينها أبي. تُرى ماذا يُريدُ أن يفعل بي، بعد. هل ينوي ضربي أمام زبائنه. قام متجهاً نحوي، فقفز الرجل المحجوم ممسكاً بيده، وحالفاً عليه بالطلاق. همهم أبي متملصاً منه:

ـ ماني ضاربه دحين. . . الضرب بعدين.

ـ طيّب خلاص. سيبه بجاه اللّه يا مسعود.

ـ قلت ماني ضاربه. . . أبغي أطلع فوق شوية ونازل.

ـ أقول لك بجاه اللّه.

ـ قلت يا معتوق ماني ضاربه.

ـ طيب على مهلك.

اقتادني إلى السطح الذي كان يغلي من حرارة الشمس. وصلنا إلى الفاصل الزنكي. قيد يديَّ ورجليَّ، ثم ربطني في منتصف لوح الزنك الساخن متمتماً:

ـ راسب يا ابن الكلبة.

ـ . . .؟

ـ كسفتني وسط الناس.

ـ . . .؟

ـ كل يوم رايح المدرسة، وجاي من المدرسة، زي البهيمة.

ـ . . . ؟

ـ طيّب أوريك.

ـ . . . ؟

ـ اليوم عتقك عمك معتوق.

ـ . . . ؟

ـ . . بكرة وريني مين حيعتقك؟

ـ . . . ؟

ـ يا ابن الكلب.

ـ . . . ؟

ـ أوريك شغلك . . .

ـ . . . ؟

ـ عشان تعرف تسقط مرة ثانية.

كانت عيناه تقدحان غضباً، وكلمات السباب والشتم تتطاير من بين شفتيه مع رشاش من ريقه اللزج. كان يقيدني ونفَسُه الحار يكاد يحرق جلدي. مكثت تحت الشمس إلى أن غابت. كان أطول أيام حياتي. في البداية لم أشعر بالوقت، ولم أبك، ولكن عندما اشتد لهيب الشمس وبدأ العطش يشتد بي تمنيت لو أنني شربت قبل أن أرجع إلى البيت. تركزت حرارة الشمس على صلعتي الطرية، فأحسستُ بي أهذي. . . أو أكاد. تراءى لي الكثير من الصور الغائمة. شفتاي تمزّقتا من العطش وبدأت أشعر برأسي يرتج. لم أكن أستطيع إسناده إلى اللوح الساخن، فقد كانت لسعاته الحارة تبخّر العرق المتفصد من

رأسي بسرعة لتصل إلى جلدة رأسي فتسلخها. لوهلةٍ، تصوّرت أنني أشم رائحة شواء. هل هي رائحة جلدة رأسي. أردت أن أتحسّسها، فما استطعت. يداي مقيّدتان. صرخت كثيراً فتبدّد صوتي ولم يسمعني أحد. هل كنتُ أستحق كلَّ هذا العقاب. راودني كثيراً هذا السؤال، وظلَّ مسيطراً عليَّ حتى انطفأت الشمس وتهدم العالم من حولي، فلم أعد حينها أهتم بما سيحدث. كنتُ قد فقدت القدرة على المقاومة. أدركت بعدها أن هذه الدرجة من فقد الرغبة في المقاومة، والبقاء، تجعل من الإنسان ورقة في مهبّ الريح، يذروها التيار كيفما يشاء من دون أن يمنحها فرصة للاختيار ومن دون أن يلطف بها. فهل كنتُ أريدُ أن أكونَ هذه الورقة... وهل كنت أريدُ أن تذروني الريح من دون أن تلطف بي. من يومها، تملّكني إحساسٌ بالقهر، فلم أعد أهتم بجلسات العقاب وركلات القرف التي كان أبي يعاقبني بها طوال العطلة الصيفية. تتابعت الأيام لأُفاجَأ بأنني وأربعة آخرين نُمتَحَنُ بمادة القرآن في الفصل. كانت مهزلة، أدركت بعدها الكثير من توافه أستاذ القرآن. لم أعد أعانده، حتى بعد أن أصبحت زميلاً له في التدريس. كنت أنظر إليه مستغرباً وهو يمسح أنفه المزكوم، دائماً، بطرف شماغه.

■ ■ ■

سكينةُ الليل جعلت ضوء المصباح الكهربائي ينسابُ في ثنايا الأرض، فاكتسحتني نشوة الليل لأنهض مستكشفاً ما حولي ببهائه المضيء. تناسيت مكاني، ربما عن قصد، فقد تعبت. في هذه اللحظات ترتبك الأوقات لديّ فلا أستقر ولا أتمكن من تحديد ما أفعل. التبس عليّ كل شيء؛ الزمان، والمكان، وحتى تحديد الأشياء وتمييزها. انتابني شعور غريبٌ من الخوف، فألجأ إلى الضوء المتغلغل في الغرفة علّه يريحني.

أقعدني كسلي. ينتابني إحساس غريب بوجود جثة سراج الأعرج؛ إحساس ليس له قرار، وكأنني أقف أمام صحراء ممتدة نحو الأفق. تلمست أطراف السرير المهترئة، ونهضت متجهاً إلى جثة سراج الأعرج. بدت متورّمة ومبتعدة عن السرير. يبدو أن برودتها تجبرها على الزحف، أو هكذا يبدو لي. خفتُ أن أكون أهذي. قد يكون تورّم الجثة يجعلها تتمدد فأشعر بحركتها. وربما يكون روح سراج الأعرج الذي يقف الآن بجوار جثته ينظر إليّ، دافعاً الجثة نحوي ليتمكّن من رؤية ملامح جزعي وخوفي، بوضوح.

آه.. . إنَّ هذا الهذيان المخيف يدفعني إلى الجنون.

نظرت إلى الشق فوجدتُ الصينية كما تركتها. لم يحضر أحد الطعام. ولم أكن جائعاً. العرق المتفصد والحر الذي لا يُطاق، أجبراني على الخروج من الغرفة بحثاً عن الماء. لم يكن الحوض متهدماً كما ظننت. كانت هناك صخور مرتفعة، متراصة فوق بعضها البعض، تعطي السور صورته الكاملة برغم ارتفاعه المنخفض.

دهشة خفيفة غير واضحة اعترتني وأنا أبحث عن الماء من دون أن أجده. سرتُ بمحاذاة جدار الغرفة من الخارج متجهاً نحو الركن حيث الزير الرطب ينز الماء. رفعت الغطاء وغرفت بعض الماء غسلت به وجهي. تراجعت بعدها إلى جوار الباب لأجلس متحاشياً النظر إلى داخل الغرفة. كان جلوسي على صخرة صغيرة ملساء شبيهة العتبة، يجعل الحرارة تنساب إلى مؤخرتي ناشرة الارتياح في جسدي، فأسند ظهري إلى الجدار بتراخٍ.

أحياناً كنت أجلس في أعلى الحفائر أراقبها في الليل من قمة جبالها الساخنة. أنظر إليها وإلى ساكنيها النائمين. كان نومهم يستعيد تهافت الليل إلى الصمت ليستمروا في ذلك حتى توقظهم حركة الضوء البطيئة في المساء، فتظهر تحركات الساكنين كلهم منذ الصباح الباكر وكأنها تتعمَّد البطء، مع الضوء بأصوات مرتبكة حتى يرتفع أذان الفجر، منساباً، متسللاً في الليل بين البيوت. حينها يظهر محمود الدنديري نازلاً من أعلى الجبل المطل على الحفائر متحسساً الطريق بعصاه الغليظة، مبعثراً بها الحصى الكبيرة وعلب الحليب الفارغة. أفكاره ما تزال تصارع النوم، وأمنياته تتجدد كل يوم كأنها النهار الذي يطل عليه بنوره، فيحس بأنه نور غير الذي رآه بالأمس؛ نور يعطي أضواء جديدة... ليوم جديد... وتمنيات جديدة. لم يكن الطريق الترابي من منزله في أعلى الجبل مريحاً للمشي. كان يشعر بكل حجر

يمشي عليه ينغرز في قدمه، فيستطيل ألمه حتى يصل إلى أطراف شعر رأسه الأشيب.

الطريق متعرج مثل جميع الطرق التي تؤدي إلى قمة الجبل التي يعرف محمود الدنديري عدداً منها. هذه الطرق لكثرتها تبدو وكأن كل شخص أراد الصعود إلى الجبل أو النزول منه، اتخذ طريقاً خاصاً بالصعود وآخر بالنزول، فشكلت شبكة من الطرق المتداخلة التي قد تلتقي بطُرق أخرى في بعض الأمكنة المختلفة. ولكنها في النهاية طُرق منفصلة، لها ترابها، وحجارتها وهواؤها الخاصة بها. صورة هذا الطريق الذي يسلكه دائماً، تبدو كحية طويلة لا يُعرف لها رأس من ذيل. قد يكون رأسها في أعلى الجبل وذيلها في الأسفل. وربما يكون العكس. أو قد تكون هذه الحية بلا رأس. فالطريق يضيق في أمكنة كثيرة حتى بدا من المتعذر على شخصين أن يسيرا متجاورين، ويتسع في قليل من الأمكنة لأكثر من ذلك.

لخلو هذا الطريق من الحجارة كانت الكلاب تفضل أن تتخذ منه مكان نومها في آخر الليل. كانت الكلاب تلوذ دائماً بالليل، بعد أن تكون قد قضت معظمه في استغاثات ومعارك طاحنة بين ذكورها. لطالما حسبتُ أن هذه الكلاب المتعاركة، كانت تتقصّد معاركها الصاخبة، وإبراز تكشيراتِ أنيابها، على أمل الفوز بمطارحة غرام أجمل إناثها. أتخيّلها دائماً تتعمّد هذا، وأظنُّ، بل أوقن أنَّ أيّاً من الذكور لن يفوز بشيء من شدة التعب والإرهاق. كان أهل الحفائر اعتادوا على هذه المعارك لكثرتها. ووصل بهم التعايش معها، أن بعضهم يستغرب إذا لم يسمع كلبين يتراشقان النباح قبل أن يشرع في النوم أو في المضاجعة. عند نزول محمود الدنديري في هذا الوقت المبكر، كان دائماً يتعمد أن يزيل بعصاه الحجارة التي تسقط من

أطراف الجبل أو أي شيء مهما كان صغيراً، فيُحدث جلبة خفيفة أو صوتاً ينبه به الكلاب النائمة، فلا يضطر إلى الدخول معها في معركة مملة. لا يجب أن تكون هذه المعارك أول عمل يقوم به في هذا اليوم. ويدرك أيضاً أنها متعبة ولا ترغب في أي معارك إضافية فلا تزال معارك الليل عالقة في مؤخراتها وعلى أطراف أذيالها. ومع كل هذا الحرص، لم يشعر به أحد الكلاب، الذي يبدو أنه أحد فائزي البارحة. لمست العصا ظهر الكلب بقوة جعلته يقفز مذعوراً وينطلق بعيداً عن الطريق غائباً في ظلام الجبل بنباحه المتألم. واصل محمود الدنديري سيره متمتماً بأدعية ومحوقلاً بآيات قرآنية لا أعرف كيف حفظها ولا متى حفظها. يرددها كعادة يرتاح إليها كل صباح، فيشرع في قولها وتكرارها من غير أن يدرك تماماً ما يعنيه بعضها...

ـ يا اللّه افتح لنا أبواب الخير... الحمد للّه على نعمة النهار... اللَّهُمَّ ارزقنا في يومنا هذا من الخير أكثره... اللَّهُمَّ يا عالم ما في الغيب...

ومع انهماكه في ترديد الأدعية لم يلحظ وجود الماء في الطريق، الذي انساب من بيت علوي الصيباري بائع المقلية في ركن الحفائر، والمتبقي من غسيل الملابس المتسخة بالزيت. مع ظلمة الليل لم يدرك وجود تلك الأوساخ إلاَّ عندما لمس الماء بقدمه. فرفع طرف ثوبه بحركة لاإرادية مردداً بغضب وبصوت عالٍ:

ـ لا حول ولا قوة إلاَّ باللّه... كل يوم في بيت الصيباري غسيل..! إيش النظافة هادي يا علوي؟

تلمس بضيقٍ، طرف ثوبه. كان الماء قد بلل الطرف ولا بدَّ من أنه قد تنجس، ولن تصح صلاته بهذا الثوب قبل أن يقوم بتغييره أو غسله...

ـ سوف أغسله بالمسجد. من غير الممكن أن أعود إلى البيت مرة أخرى. . .

لم تكن هذه النجاسة تهمه في كثير من الأحيان، ولكنه اليوم مهتم بأداء الصلاة على أحسن وجه. فهو يشعر هذا الصباح بأن يومه هذا مختلف. إنه مقدم على يوم جميل ولا يريد أن يبدأه بصلاة لا يطمئن إلى صحتها. كان يشعر برغبة في التسبيح. ومع وصوله إلى طرف الجبل الأسفل اقتربت أصوات الديوك وأصبحت واضحة ومزعجة في الوقت نفسه. كانت الديوك تنافس المؤذّن بأصواتها من دون أن يبدو لها تأثير على الكثير من المنازل. فلم تفتح النوافذ. ظلَّت موصدةً والصوت يمضي بلا أثر في شيء، سوى بعض الأغنام في الأحواش التي تململت قليلاً ثم عادت كما كانت.

جميع الدكاكين التي يمر بها مغلقة وقد تراكمت بجوار بعضها الكراتين الفارغة لمختلف البضائع، ورقدت بجوارها (على الاسفلت) بعض القطط الصغيرة. لم يكن غريباً على محمود الدنديري الشعور بسكون الليل ووحشته، من دون أن يكون هناك أي صوت من الممكن أن يمزق هذا الهدوء. لقد اعتاد على هذا السكون منذ أن كان أحد عسس الحارة. ولم يكن يعرف إن كانت أحياء مكة مثل الحفائر تتسم بالحركة الدائبة طوال النهار والسكون الموحش إلى درجة الموت في الليل. لم يخرج من الحفائر إلاَّ إلى الحرم. لذلك كانت المناطق والحارات الأخرى تُعتبر عالماً آخر لا يرغب في التعرف إليه. رائحة التراب المتصاعدة من أزقة الحفائر لا تخفى عليه. فهذه الرائحة الخاصة التي تملأ أنفه يعتبرها جزءاً من طقوس تنفسه اليومية عند الفجر. فعند مروره من الشارع الرئيسي تصل إلى أنفه تلك الرائحة الممزوجة بدخان (الجاوه) وبخور (المستكا) وبعض روائح متصاعدة

من جدران البيوت، غير واضحة. ويعتقد أن هذه الرائحة أيضاً معروفة لجميع الساكنين والعابرين للحفائر من هذا الشارع، فتجعلها في نظره ميزة تنفرد بها الحفائر عن جميع حارات مكة؛ تلك الحارات التي لا يعرفها بعدُ.

مع وصوله إلى سفح الجبل كان يشعر بأن المنازل قد أقفلت عليه منافذ الهواء. كنت أعرف شعوره بالاختناق من الطريق، فقد تذكرت ما كان يقوله والدي عن الحفائر:

ـ الحفائر يا بني. . . كانت تشبه الحفرة الكبيرة بين جبلين من الصخور الصلبة. واسم الحفائر أُخذ من موقعها هذا. لذلك أشعر باختناق كبير عندما أنزل من الجبل ذاهباً إلى الحرم. وبعد أن شُق الطريق بين هذين الجبلين من طرف أحدهما، أصبح هناك جبل واحد هو المطل على الحفائر. ومع الزمن أصبح سكان الجبل الآخر، الواقع على طرف الشارع المقابل، خارج الحفائر.

ـ . . .

تنفس محمود الدنديري عميقاً محاولاً إزالة الضيق الذي يشعر به. ومع وصوله إلى نهاية الزقاق المؤدي إلى الشارع الرئيسي الوحيد في الحارة، أسند يده المعروقة إلى جدار بيت حسنين الجزار، المعروف (بروشانه) القديم. كان باب بيت حسنين يطل على الزقاق من جهة، وعلى الشارع من الجهة الأخرى، وكان باب دكان اللحم الخاص به يتصدر قائمة المحلات على الشارع. وإلى ذلك الوقت لم يكن دكان اللحم مفتوحاً، على غير عادته. وعندما وجد محمود الدنديري دكان الجزار مغلقاً، أخذ يهز رأسه ببطء يميناً ويساراً مردداً بعض الأدعية الخفيفة، وعلامات الأسف بادية على وجهه. لقد اعتاد على أن يجد

الدكان مفتوحاً من غير أن يكون به أحد. أخذ ينظر حول الدكان فلم يجد أي شيء سوى بعض القطط تتثاءب استعداداً لوجبة الإفطار الدسمة.

ـ للنوم سلطان حتى على الجزارين. شكله سلطان التخمة. . . !

لم يكن الهواء قوياً، لكنه كان كافياً لتحريك علبة صلصة الطماطم المعدنية الصغيرة، التي تدحرجت إلى أن لمست قدم محمود الدنديري، فجعلته يجفل من المفاجأة وقطعت عليه تسبيحاته، فأخذ يسب ويلعن الجميع:

ـ حتى علب الصلصة. . . إيش هدا اليوم؟

وصل إلى المسجد وتوجه مباشرةً إلى الصف الأول. أخذ يتطلع إلى من حوله من المصلين بعينين مثقلتين بالغمس، الذي يكاد يفقده صوابه. كان الغمس يتكون بصورة سريعة حتى يشعر من يراه بأنه لم يغسل وجهه هذا الصباح. أدّى ركعتي السنة ببطء لا يعرف له سبباً، هل هو استمتاع بالصَّلاة. . .؟ أم كسل بعد النوم. . .؟

ـ . . .

لم يدع له الإمام فرصة للراحة بعد أن أدى ركعتي السنة، لذلك قام ليأخذ مكانة جوار المصلين القلائل، عندما أقام المؤذن الصلاة. كبّر مسرعاً قبل أن يفوته فضل تكبيرة الإحرام، من دون أن يتذكر من قال له عن هذا الفضل، وشرع في الصلاة. كان النظر إلى أصابع قدميه بمثابة المراجعة اليومية لنظافتها، التي لم يكن يراها إلاَّ عند مقارنة قدمه بقدم المصلي الذي جواره، ثم يدخل في دوامة الذكريات التي تتصارع أمامه كلما بدأ في الصَّلاة. عندما سلّم التسليمة الأولى منهياً صلاته رأى أن معظم المصلين في المسجد متأخرين. نظر إليهم وشعور

بالفخر يملؤه، إذ كان خلف الإمام مباشرةً. مع خروج المصلين من المسجد ارتفعت كلمات على شكل همهمات يُفهم منها نوعٌ من الفرحة بيوم جديد يستقبلونه، أو قد يكون حزناً على ما مضى.

ـ صباح الخير يا عم مرزوق.

ـ صباح النور والسرور. . .

ـ . . .

تُسمع هذه الكلمات في ما بينهم مختلطة بصوت وقع الأحذية على بلاط مدخل المسجد القديم المتكسر. أصوات سحبها تبدو كأنها همهمات لدرويش يشتاق إلى الثرثرة بعد أن يكون قد أجهد نفسه فلا يجد من يستمع إلى صوته المتحشرج. لم يكن هذا اليوم يوماً مناسباً، كما كان يتوقع محمود الدنديري عندما اقترب من حسن الصفيري مطوف حجاج أندونيسيا الواقف مع معتوق بايلة مطوف حجاج نيجيريا، ليطغى صوته على حديثهما:

ـ السلام عليكما.

رد معتوق بايلة وحسن الصفيري السلام، في وقت واحد تقريباً، ثم اقترب حسن الصفيري من محمود الدنديري هامساً:

ـ ما سمعت إيش صار البارحة. . .؟

ـ إيش يعني اللي صار. . .؟ مات النبي. . . قديمة. . .

ـ قُل له يا معتوق. . . شكله نايم في العسل. . .

ـ عسل. . . فين العسل. . .؟. . . هيا تكلم أنت. . . إشبك انخرست. . .؟

ـ مسعود تكنيري. . . مات. . .؟

ـ مسعود الحجام. . . !

ـ أيوه مسعود الحجام. . .

ـ فين؟

ـ مات جنب المقبرة.

ـ ومين لقاه.

ـ ماني عارف. لكن ولده هو اللي عرفه بعدما أرسل محمد القبورجي صبيه وراح شاف بنفسه وقال وأكد.

ـ قال لمين. . . ؟

ـ قال للعمدة.

ـ شفت البارح ولده محمود مغموماً. . . كأنه عارف أن أبوه مات!

ـ المشكلة أنه مات مقتولاً ويمكن دحين دفنوه بعدما صلوا عليه الفجر في الحرم.

ـ لا حول ولا قوة إلاَّ باللَّه. . . والعزا في بيتهم.

ـ ايوه.

ـ ومن قتله. . . ؟ انت تعرف حاجة. . . ؟

ـ ما حد عارف لدحين. . . يمكن نعرف شي في العزا؟

أجاب محمود الدنديري وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ماني عارف جاتنا هادي المصايب من فين. . . من زمان ما انقتل أحد في الحفائر.

ـ الزمن إتغيّر يا محمود.

التفت محمود الدنديري إلى معتوق بايلة وقال مستفسراً:

ـ لكن كيف يدفنوته بسرعة من غير ما تكشف عليه الحكومة؟

أجاب معتوق بسرعة وقد أخفض صوته كمن يهمس:

ـ جاءت الحكومة البارحة، وطوال الليل ومسعود تكنيري عند الحكومة. . . الحكاية حصلت بعد صلاة العشاء بنصف ساعة.

ـ يعني بعدما طلعت البيت؟

ـ أنت رحت البيت من هنا وصبي القبورجي جاء على طول يسأل عن محمود تكنيري.

ـ وبعدين؟

ـ ولا قبلين، جلست أنا أتكلم مع العمدة الين ما تعبت ورحت البيت.

ـ يعني لسع الحكاية ما انتهت؟

ـ يا سيدي. . . هو الراجل كان زي الميت من يوم ما قفلوا دكانه.

ـ بس كان حي. . .

كانت علامات الحسرة بادية على ملامح حسن الصفيري عندما تدخل في الحديث مندفعاً.

ـ يعني لازم أحد يقتله عشان يموت. . . ليش ما سابوه؟ يمكن ربنا كاتب له شيء ثاني. . . مين يعرف؟

ـ بس يا جماعة الموضوع طري ويمكن الراجل في الثلاجة؟

انفعل معتوق بايلة وهو يجيب:

ـ ثلاجة إيش اللي تتكلم عنها. . . الحكومة قالت لازم يندفن قبل ما يطلع النور. . . وأرسلت المغسل من الشرشورة اللين بيت مسعود

الحجام، اللّه يرحمه، عشان يغسله. تلاقيهم دفنوه دحين. . . كان نفسي أحضر الدفن لكن أنت عارف ركبي. أنا خلاص تعبان وماني قادر أشيل نفسي زي الناس.

تطلّع محمود الدنديري إليهما معاً ثم ابتعد على مهل قائلاً:

ـ ربنا يكون في العون. . . مع السلامة.

ـ مع السلامة.

ـ . . .

توجه محمود الدنديري إلى عم قدري الفوال. كان معتاداً على الإفطار عنده كل صباح.

تقدم سراج الأعرج، بخطواته غير المنتظمة وجسمه المتمايل، إلى باب المسجد ليرفع يديه كأنه يدعو اللّه، ويبدأ في الصراخ ووجهه إلى الباب:

ـ يا حيّ. . . يا. . . اللّه.

فتنهمر الدموع من عينيه تبلل شاربه وشعر لحيته. . . يكبّر ويبدأ الصلاة عند عتبة باب المسجد أمام (الدرفة) المغلقة. . . !

كان من تبقّى من المصلين ينظر إليه ويستغفر اللّه ثلاث مرات وينصرف متمتماً:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ باللّه. . .

كنت أراقب كل هذا من ركن المسجد من دون أن يروني. لا أعرف لماذا أفعل هذا. أشعر بمتعة كبيرة في مراقبتهم من غير أن يشعروا بوجودي. كانت تلمع في عيونهم نظرات غريبة تجوس في الهواء وتدفعني إلى الاستمرار في مراقبتهم بانتباه أكبر. بدوت في

جلستي منصتاً إليهم، مراقباً أصواتَ خطواتهم المبتعدة وكأنهم كانوا هنا قبل قليل.

وحشة حوش سراج الأعرج تتدانى إلى رأسي فأبتعد عنها هارباً وكأنني أقفز فوق صفيح ملتهب. تتولّد فيَّ رهبة الخوف، وأتذكر أشياء كثيرة أرتجف منها. لم أطمئن إلى رغبة العودة إلى الغرفة، فقد تذكرت سقوط سراج الأعرج وأشياء كثيرة جعلتني أخاف... وجعلتني أتذكر الموت المتربص في الداخل.

■ ■ ■

من يوم ولادتي البعيدة، تشكّل الضباب حاجزاً أمامي. كان حزناً وفرحاً وُلدا معاً، واضطرا إلى أن يتعايشا معاً. وُلدت أنا وتوفيت والدتي في مهزلة الحياة المستمرة. عندما ألتقي بوالدي ونتحدث إلى ما لا نهاية كعادتنا، نقف ملطخين بنفوسنا وأعمالنا تدعمنا بقوة. كنت أتحدث مع والدي كثيراً، خصوصاً بعد أن نُشر خبر وفاته، حديث الأفراد المتعبين من الحياة. كانت جثته تتنفس وأجدني أستنشق زفراتها فأتنفسها في الليالي الحالكة السواد. كنا نتقابل لنقول الكلمات الغامضة والمرتبكة. نقف أمام بعضنا إلى النهاية من غير أن يحدث في تفكيرنا شيء من الغضب.

لست موقناً من بداية الحوارات الحائرة مع أبي، إنما بعد أن مات وأنزلته في ظلمة القبر الرطبة، ظهرت الحوارات بعتمتها. لا يمكن أن أنسى وحشة القبر وظلمته، فقد كنت أقوم بواجب الجنازة وكأنني أؤدي واجباً إلى أحدهم. جثمان والدي العجوز يرقد على طاولة الغسيل في وسط (دهليز) البيت. بعد أن ربطت طرف ثوبي في وسطي وبدت ساقاي المشعرتان وقدماي الحافيتان تصطخبان على البلاط، قمت بنشاط كبير في غسله مع غاسل الموتى. كان يُسمع من بعيد صوت

(مغاريف) الماء وكأنها تتساقط من السقف، مختلطاً بصوت ارتطام قدمي الحافيتين على الأرض.

لم أستخدم (الليّ) للماء، بل أحضرت زيراً من الفخار يشبه الذي بجواري هنا، في بيت سراج الأعرج، وملأته بالماء. كنت أعتقد أن الفخار له أسرار التراب والماء. لقد كان الفخار نظيفاً، فهو يطرد الماء الفاسد. يترك القطرات تتفصد من جدرانه ببطء، لم يكشف لأحد عن السبب فهو يظلّ ينضح بما في داخله حتى لو جف تماماً وتشققت الحواف، فلم يكن هذا يعنيه. لا يرضى بأن يكون الماء في داخله لذلك يجب أن يبقى صلباً ما دام من تراب. بعكس الإنسان الذي يتمسك بماء الحياة داخله ولو كلّفه ذلك حياة العالم بأكمله، فلن يتردد في حرقها قرباناً لبقاء ماء الحياة في جسده.

وضعت الزير في الركن وملأته ماءً ثم غرفت منه كثيراً إلى انتهيت من غسل والدي، ثم نظرت إلى الزير ووضعته جانباً، ولم أستعمله بعدها أبداً.

مرت بعدها شهور، وحين أفتقد أبي وأرغب في الحديث معه، أضع في الزير قليلاً من الماء وأبدأ بعدها في عد قطرات الماء المنسابة إلى أن أغفو. لكن إلى اليوم ما زال الزير جافاً منذ سنين. لقد نسيته تماماً.

الصلاة في الحرم على الميت على وشك الانتهاء وأنا لا أكاد أدرك ما يجري. بدا لي الكفن ناصع البياض عندما نظرت إليه في داخل القبر. رائحة القبر رطبة مختلطة برائحة الكادي والعطور المختلفة.

اجتهدت في أن أكون أول من ينزل القبر. تبعني عم صدقة فران بعد أن عقد ثوبه حول وسطه، وفعلت أنا مثله، فبدت سيقاننا تلمع

بقتامة موحشة لتسطع بين جدران القبر. انغرست أقدامنا بسهولة في تراب القبر الناعم متداخلة مع ذرات التراب بين الأصابع المتصلدة بقشور الجلد الميتة. كان القبر ضيقاً نوعاً ما، فعندما تواجهنا ومددنا أيدينا طلباً للجثمان كنا تقريباً متلاصقين وجهاً لوجه. أنفاسنا ملوثة بغبار الموت المحيط وبرائحة الماء النافذة من جدران القبر. تحرر رأسي من الأوهام وبدأت أواجه حقيقة الموت. عندما تدلى الرأس وتناولناه بخفة ثم تناولنا بقية الجسد انهرتُ جواره ناضحاً بقوة الحياة. كنا نبدو وكأننا نتناول لوحاً من الخشب الرطب المتآكل. لم تنغرس أقدامنا كثيراً، إنما الكعبان عندما ارتكزنا عليهما. كانت همهمات أنفاسنا تدوي داخل القبر وتنتقل إلى رأسي كأنني أهدر منتحباً. ثمة رهبة تسللت إلى داخلي أرعشتني وهزت جسدي المرتبك عندما وجّهنا الجثة نحو القبلة. . . فتحت الكفن الأبيض الذي بدا متعفراً في المنتصف ببعض التراب. لم يكن ضوء الكشاف الذي يحمله عم صدقة فران باهراً، ولكنه كاف لأن يضيء وجه الميت تاركاً للنفس أن تقشعرّ، ولتلك الرهبة أن تتمدد لتحيط بأركان القبر الموحشة. مسحت أنفي وتنهدت برعب ممزق، ومن ثم هززت رأسي وجثوت على ركبتيّ بجوار الجثة. بدوت لا أعرف أنه والدي ولم أصدق بعد ذلك أنه مات إلى هذه اللحظة. لا يمكن أن يموت قبل أن أتحدث معه وأسأله ويجيب. اقتربت من وجهه الجامد باطمئنان. لحظتها، شعرت بأنفاسي الحارة تحاول بث الحياة في شفتيه. كانت لحظة خاطفة اعتقدت خلالها أنه والدي فعلاً. سقط بعضٌ من قطرات العرق على وجهه. أغمضت عيني وتمنيت أن أجده عندما أفتحهما ينظر إليّ متحدياً، ولكنها أمنية تبخرت وتلاشت داخل جدران القبر. عندما عدتُ ونظرتُ إليه وجدته كما هو، متلبّساً برودةَ الموت. قبّلته، كان صوت القبلة

يتردد في أنحائي. لم يسمعها أحد، فهي قبلة اللقاء الأخير الذي اختاره لنا الموت، أخرجتها من بين شفتي لتستقر على خده المتجلد. لم أستطع النهوض. كانت أطرافي قد تخدّرت، فغبت في الظلام لبرهة سمعت بعدها عم صدقة بصوته الأجش، يواسيني:

ـ وحّد الله.

ـ . . .

ـ وحد اللّه يا محمود.

ـ . . .

انتفضتُ من دون أن أقوى على أن أتحرك من مكاني. حاولتُ أن أتماسك، لكن قواي خانتني. همست لعم صدقة:

ـ ساعدني.

ـ . . .

ـ ساعدني يا عم صدقة.

ـ لا تخاف أنا جنبك.

ـ . . .

كان همسي له صراخاً يصم روحي المتهدمة في مواجهة الموت الذي انتشلني منه عم صدقة بيديه القويتين بعد أن وضعهما تحت إبطي. دفعني إلى أن فتحت القبر قائلاً:

ـ اطلع. . .

ـ . . .

ـ اطلع أنت أولاً.

شعرت بالخوف المرعب يتملّكني وأنا أنظر في عينيه الدامعتين، فلم أتردد عن سؤاله من دون أن أفكر:

ـ وأنت يا عم صدقة؟

ـ أنا وراك لا تخاف.

ـ . . .

نظرت إلى أعلى. كانت مئات العيون تتطلع إليّ وأنا أصعد. لقد تحول الجمع إلى ما يشبه الأخطبوط بعشرات الأيدي الممتدة نحوي لمساعدتي للخروج من القبر. أشار عم صدقة إلى فتحة في الجدار قائلاً:

ـ حُطّ رجلك في هذا الخرق.

ـ . . .

ـ حُطّها ومُدّ يدك عشان تطلع.

ـ . . .

وضعت قدمي اليمنى حيث أشار ماذاً ذراعي إلى الأعلى، فتلقفتني يد قوية. لا بل كانت أيدٍ، بعضها أمسك بكفي وبعضُها برسغي. كانت الأيادي تتكاثر كلما ارتفعت خارجاً إلى أن وصلت إلى جوارهم. ثم تبعني عم صدقة في الصعود.

كنت أنظر إلى القبر وهو يقفل متذكراً خيطاً من الكفن علق بطرف الجدار عندما فتحت الكفن، إذ تدلى بجوار رأسي ولم أنتزعه. لقد تركته متأرجحاً إلى أن أظلم القبر.

بعدها بأسبوع، كان لقائي بوالدي في وسط الليل. لقد ظهر لي فجأة عندما دخلت إلى المقعد. نظرت إليه. بدا لي متربا ومصفراً،

يشبه جثة سراج الأعرج المنطرحة داخل الغرفة. ما يدهشني أنني لم أستغرب وجوده، فقد كانت نظراتي تقترب من والدي بعد أن خمد دخان الشيشة الجراك وبقيت رائحته الطازجة تفوح من مساند الطُرف (والمخدات) القطنية، بينما هو ينظر إلى الشارع من غير أن يتحرك. انتفض جسده قليلاً مع دخولي وتلاقت نظراتنا. بدا لي وكأنه يراني لأول مرة. أرخى بصره وسحب قدمه المريضة ليعدل من جلسته. التفت إلي:

- إيش تبغي يا محمود؟

- ولا شي... جيت أسلم قبل ما أنام.

- وعليكم السلام.

- ...

- إشبك واقف؟... قلت وعليك السلام.

- ...

لم أكن أرغب في الكلام معه في تلك اللحظة. هممت بالخروج بلا مبالاة. لكنني توقفت عندما سمعته يقول بشيء من الليونة:

- أقول لك تعال نتكلم شوية.

تقدمت بضع خطوات من غير أن أتكلم.

- إجلس... ليش واقف؟

جلست طرف المجلس بخجل لا أعرفه.

- اللي يشوفك اليوم ما يشوفك كل يوم.

- ...

- تكلم... إيش عنك...؟

كانت الحيرة مرتسمة على وجهي وأنا أجاهد في إخفائها:

ـ أبغي أسألك.

ـ إسأل.

ـ بنت النجار؟

ـ إشبها أمك.

ـ أنت... كيف تزوجتَها؟

ـ زي ما يجوّز الناس الحريم...!

ـ أعرف... لكنك كنت فقيراً وبيت النجار كانوا أغنياء؟

ـ يا سيدي... زمان غير اليوم.

ـ كيف...؟

ـ أنا كنت زمان غير اليوم... كانت عندي قوة وهبقة[7] ما هي عند أحد.

ـ زي إيش...؟

ـ أنا أقول لك.

عندما بدأ يتكلم كنت أتحسس ما حولي وأنا أسمعه يجتهد في التذكر متمسكاً بهلاميات الذاكرة العجوز، فظهر حالماً ومحلقاً في الخيال بينما بقيتُ منصتاً، فبدت كلماته متفلتة من ذاكرتي محاولة التجمع، ولكنها بالتأكيد قِيلت بمعناها الواضح أمامي الآن. لقد نظر إليّ وهو يتكلم:

ـ من بعيد كنت أراقب ما يحدث من دون أن أتكلم. كنت أعرف

---

(٧) هبقة: كلمة باللهجة المكاوية تعني اندفاعاً وتهوراً.

أن بيت النجار معتوق يُعتبر من أكبر البيوت في الحفائر، (ليه هو أنا حمار)، وأعرف كمان بنته لا بدّ من أن تتزوج شخصاً من بيت في المستوى نفسه. ومع ذلك لم أهتم بهذه الفوارق. كانت لا تعني أي شيء. كنت أشوف البنت وأعتبرها من أملاكي الخاصة، يجب أن أنالها حتى ولو كان مجرد نظرة بعينين شبقتين تفوح منهما رائحة الفحولة. وأتخيل أنها كانت تشم رائحة إبطيّ. كانت بالنسبة إليَّ الفريسة التي أجري وراءها وأحاول صيدها وإيقاعها في الشرك المنصوب لها. وما كانت تعنيني تأوهاتها، ولا استرحاماتها. كل هذا كان يعني أنها لازم تكون داخل القفص. أحلم بأني أشوفها داخله، ربي كما خلقتني، من غير أي قشور تقف أمام عينيّ. وأبدأ بعدها الرحلة في التحليق المستمر حول الجسم البض المطروح على الفراش وأنزل الستارة المعطرة. أقرب من التأوهات الهامسةِ والدغدغات المثيرة، فأنصهر وتحترق شهوتي عند القدمين، حتى لا أستطيع بعدها الحركة، وينتفض جسمي كله مرتعشاً بقوة.

- . . .

تطلعت إلى والدي وأنا أكاد لا أُصدق أنه استعاد قوته الكبيرة التي كان يمتلكها، وإن كنت أعتقد أنني أنا الذي فقدتها في مطحنة المدرسة وطلابها. حدّقت فيه أكثر. أمارات التعب لا تزال بادية عليه. تابع حديثه وهو يبادلني نظرات الاستهجان:

- في يوم بعدما انتهيت من الحجامة وتنظيف الكؤوس وجميع الأدوات، أخذت دشاً بارداً وخرجت للشارع أسحب قدمي صامتاً. كنت أريدها. أراها أمامي في كل مكان. لمن وصلت القهوة، كنت أتحسسها وأنا أتلمّس فنجان الشاي الساخن. صرت أشوفها تتصاعد من شفتي مع دخان الجراك زي العطر الحلو.

ـ يا مسعود وحّد اللّٰه إيش الهمّ اللي إنت شايله.

ـ لا هَمّ ولا هُمْ يحزنون.

ـ إضحك يا راجل.

أكاد أبتسم في وجهه عندما قلت:

ـ الموضوع أنني بحاجة إلى زوجة.

ـ أنت تقول هذا؟

ـ نعم.

ـ نعم... كل الحارة تعرف أنك منت حق زواج.

ـ كل الحارة...؟

ـ أقصد أصحابنا يا راجل.

ـ آه... أنا تعبت. لازم أستقر. صار البيت موحش.

ـ البيت... هو أنت بتجلس في البيت...؟

ـ صرت أخاف من البيت... تصدق؟

ـ ....

ـ أمس كنت أكلم جدران الحمام.

ـ روح الحرم وطُفْ بالكعبة وصلِّ بعدها ركعتين، وإن شاء اللّٰه تنسَ كل شيء.

ـ ....

ـ هيا قل لي إيش أخبار الحجامة.

ـ تمام... كل شيء ماشي بستر ربنا.

ـ وعم قدري الفوال جاك اليوم...؟

ـ أيوه. . . أنت شفته كمان. . .؟

ـ لا بس جاني أمس يشتكي من رجله ونصحته يروحلك.

ـ جاني اليوم وقعد يشتكي. . . طالعت فِـ رجله لقيتها سليمة وما فيها إلاَّ العافية.

ـ وايش سويت معاه. . .؟

ـ حطيتله كأسين في ظهره عشان يطّمن.

ـ يا راجل كنت فهمته أن ما فيه إلاَّ العافية؟

ـ يا سيدي أنت عارف قدري وتخانة مخه.

ـ أعرفها. . . بس هذا شي لازم يفهمه؟

ـ عساه ما فهم. . . إيش تبغاني أخلقه من جديد عشان يفهم.

ـ لا بس كان تبسّط له الحكاية.

ـ حيقعد يسألني طول اليوم.

ـ يا مسعود لا تضحك على الراجل.

ـ أنا ما أضحك على أحد. جاني عشان أحجمه. وحجمته، وانتهى الموضوع!

ـ . . .

تطلع والدي إلى السقف ثم تابع كلامه:

ـ ما قدرت أجلس أكثر من كده. تركت لي الشيشة وذهبت إلى بيت (الهندية). الليل ستار، يخفي كل العالم تحت النجوم. تسللت إلى البيت وابنتها لم تنم. كنت أعرف أنها تريد أن تقترب ونحترق معاً في تنور الرغبة المرة. اقتربت مني، ومع اقترابي منها كانت تهرب

بنظراتها وتحني رأسها. ما كانت تعرف إيش تقول. خجلها يمنعها من الكلام. ما كان عندها الخبرة اللي عند أمها، ولكنها كانت تحمل شعراً جميلاً، وملامحها الدقيقة والبياض التركي من أبيها، وأنفها المتّسق مع ملامح الوجه يجعلها آية من الجمال. لمن تقرب منه ما يعني شيئاً وإذا ابتعدت عنه كان أجمل شيء في العالم. ومع إرخائها رأسها كانت عيناي تتفحّصانها بشبق. تلك الملامح التي تزيح عن كاهلي الغبار وتفجر الشهوة. اقترابي منها يجعلني أعرفها بتفاصيل ما هي حلوة. أحاول أن أتجاهل شعوري بخيبة الأمل وأقترب أكثر عشان أوصل إلى الصورة اللي شفتها في الحلم. وأبدأ بعدها النوم.

صمت للحظات أحسست بها دهراً فاندفعت متسائلاً:

ـ ثم ماذا. . . !

ـ تعبت كثير ألين وصلت أمك إليّ.

ـ أنت تبغي تجنني؟. . . إيش دخل أمي دحين. . . ؟

ـ ما حتفهم اليوم كل شيء. . . يمكن بكرة؟. . . ويمكن تموت من غير ما تفهم. . . !

ـ يا أبويا اللّه يخليك كمّل كلامك عشان أعرف إيش النهاية؟

ـ . . .

ارتفع شخيره متناسياً كلّ شيء وأنا جالس في الغرفة لا أجد ما أفعله سوى الخروج هازّاً رأسي، ويداي تبحثان عن موضع الجوار. صدى شخيره ما زال يتردد في أذني الآن، وأنا أشاهد هجوم الليل على قبة السماء فوقي.

■ ■ ■

بقيت في مكاني صامتاً ساهماً مأخوذاً بمرور الوقت تحت غطاء الظلام. كان ضوء المصباح الكهربائي الوحيد في الحوش، المضاء دائماً، يبدّد بعض هذا الظلام ويلقي الوحشة حولي كأنه متواطئ مع الليل. سأم حاد يتسلل إليّ مع خربشة الكلاب في الخارج فألتصق أكثر بالصخرة الصغيرة التي أجلس عليها. نظرت إلى السماء السوداء بقمرها الحزين لأنكش بعد ذلك التراب أمامي بعود جاف التقطته من الأرض. تخاذل مريع بلا هدف، ولا أجد رغبة في عمل شيء.

هذه الليلة بقمرها الشاحب وسوادها المخيف، تشبه ليلة لقائي بوالدي أول مرة. كان الوقت مملاً ليلتها. ليلتها شعرت بقسوة الشمس تنطلق من وسط البيوت الباهتة المتفرقة، والحرارة تنبعث منها. لم أدر سبباً لذلك. كانت تلك القسوة تنطق من عينيّ بكلام غير مسموع. فبيتنا وسط البيوت، وأنا بداخله أقف وسط المعقد وأمامي والدي يجلس جلسته الهزيلة قرب النافذة الخشبية المتشققة في زاوية الغرفة.

تجلت قدرتي على إظهار القوة ليلتها وكأنني مارد قادم من زمن سحيق. فردتُ جسمي، وتركت صوتي يرتفع بصراخ عال. أطلقت لنفسي العنان لتقذف ما داخلها. لم أمنعها عن شيء. كنت أسمع

صوتي يرتفع بما يشبه الألم المتفجر. كنت أنظر إلى والدي ناسياً أنه مات قبل أسبوع. لم أشعر بموته أصلاً. جلّ همي لحظتها أن أصرخ مفجراً هذا الهمّ الجاثم فوق صدري. تواطأت رغبتي في إطلاق هذا الصراخ داخلي، مع صمت الحفائر، بتهادن غريب. تجرأت حينها وصرخت في وجه والدي:

ـ لطالما آذيتني يا أبي. لم يكن الضرب الذي تلقيته منك ضرباً، بل عذاب، أكفّر به عن خطايا لم أقم بها ولا أعرفها. أنت أحلت طعم هذه الحياة، مع مرارته، إلى شيء كماء عفن مسموم، لا طعم له ولا رائحة ولا لون...!

كانت الغرفة جزءاً من بيت الحجامة المنتصب في منتصف الحفائر. رسم الزمن عليها الكثير من تعرجاته ذات الأطراف المتكسرة. انتصبت بعض أسياخ الحديد الصدئة على النوافذ الخشبية القديمة، فبدت كأنها تشققت من الجفاف.

ومع انطلاق الكلمات من بين شفتيّ شعرت بأن عينيّ سوف تقفزان من مكانيهما وتتعلقان في الهواء ثم تتطلعان إليّ، عندما أردفت:

ـ ومع ذلك... أصبحت أتغذى عليه... ومع ذلك...

توقفت لأسترد أنفاسي الضائعة وأدخلها في صدري بقوة ألهبت أنفي فأخذت في حك طرفه قليلاً. لم أعر أنفي اهتماماً فأنزلت يدي وحاولت أن أتابع بجهد مستمر. كنت أتردد قبل أن أتكلم. أخاف أن يذهب اندفاعي عني كأنه لم يكن. لقد كان يتلاشى أحياناً فأتوقف من دون أن أعرف السبب. لذلك اندفعت في الكلام مسرعاً هرباً من ذلك الخوف:

ـ ... ومع ذلك... ومع ذلك أتجرع ذلك الماء المسموم كل

يوم... رغباتي أصبحت تحتاج إليه...! تحتاج إلى أن تستلذ بهذا الماء... إلى أن تنتفخ بطني ثم أستلقي على ظهري فيخرج الماء من مؤخرتي عفناً...!

أتذكر أنه على طرف السقف كانت هناك (وزغة) صغيرة تنسحب على الجدار. اتجهت إلى الخارج من النافذة. حولت نظري إليها بقوة فتضخمت لعيني لأتابع خروجها من النافذة. اتجهت حينها إلى والدي:

ـ ماذا فعلتُ بك...؟

ـ ...

ـ ماذا فعلتُ كي تقلب الدنيا وتضعها على رأسي...؟

ـ ...

ـ كيف تتقبل أنتَ هذه الأشياء...؟

ـ ...

ـ لم أكن أنا غريباً عنك... أنا ابنك... لماذا لا تفهمني...؟

ـ ...

ـ هل تعرف هذه الحقيقة...؟

ـ ...

ـ أنا ابنك...؟

ـ ...

ـ ... كيف يكون وضعي لو لم أكن كذلك...؟

انخفض صوتي كثيراً ولم أسمعه عندما خرجت الكلمات من بين شفتي الجافتين باستحياء:

ـ قد تقتلني...

كان التساؤل مرتسماً على وجهي قبل أن أكمل:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل...؟

ـ ....

ـ لم تجعل لي أيّ عقل أفكر به... أشعر بكَ وأنت تحب الآخرين أكثر مني.

ـ ....

ـ ماذا فعلتُ بك...؟

ـ ....

ـ كنت أتمنى كثيراً من الأحيان أن أكون غريباً عنك، فتعاملني مثلهم.

ـ ....

ـ لم أعد أحتمل كل هذا العذاب...

قذفت الكلمات من فمي وأنا أدرك أنه سمعها مراراً من دون أن أقولها؛ من نظراتي التي أصوبها إليه بعد أن يتلذذ بضربي لأتفه سبب، وفي أحيان كثيرة بلا سبب.

عدت إلى والدي في ركن الغرفة وأنا على يقين من أنه يدرك كل آلامي التي أشعر بها إذ يراها في التأوّهات والحشرجات التي أُصدرها مع كل صفعة تصلني منه. لم تكن صفعاته تؤلمني منذ أن تلقيت أول دفعة منها. اندفعت إليه قائلاً:

ـ كانت الصفعة الأولى قاسية. أجزم بأنك صفعتني كثيراً بعد ذلك ولكن الأولى كانت الأقوى.

ـ . . .

ـ لم أعد أتذكر لماذا صفعتني؟ ولكني أراقب الآن يدك الضخمة وهي تهوي بسرعة. كانت الفترة القصيرة بين النزول ووقوع الصفعة، زمناً لانهائياً. تهادت فيه الصور مبحرة في يمّ المستحيل.

ـ . . .

ـ أرتعب منك يا أبي. ارتعبت كثيراً أو انتفض جسدي متهيئاً للصفعة. انسحبت الألوان من حولي لتتحول الغرفة إلى جحيم أحمر بلون الدم والنار.

ـ . . .

ـ كنتُ متكوِّماً بطرف الغرفة ورائحة عرقي تملأ الهواء حولي عندما اكتشفت أنك تقف فوق رأسي. لم أتطلع إليك كثيراً. تبعثرت كلماتك بجواري عندما سمعت صدى الصفعة يتردد في أذني وكأنها أتت من داخلي. بدأ الألم بعدها بالانسحاب إلى أن شعرت بخدي وقد تخدّر من الألم. خفتت الأصوات حولي وتراخت شفتي قليلاً. الابتسامة لا تزال مرسومة على شفتي قبل أن تصفعني وحتى بعد أن صفعتني. شلّت مشاعري. لم تصل الصفعة في حينها بل تأخرت دهراً. كانت النجوم تسبح في سماء الغرفة وأرى النيران تنطلق من الجدار، من كؤوس الحجامة، من أكواب الشاي، من الهواء. المكان بكل ما فيه يتوهج ويحترق. لم أجد حولي غير الحرائق المشتعلة.

ـ . . .

ـ كنت أتطلع إليك وقد تجعد وجهك. تأخُّر الصفعة أضاع إحساسي بألمها، وأضاع عليك أيضاً متعة التلذُّذ بتعذيبي، فوقفتَ مندهشاً تتطلع إلى يدك الملتهبة ووجهي المبتسم كصنم. عَلِقَت وقفتك

بذاكرتي لتشكل رجلاً بدائياً تجرد من ملابسه ليظهر جسمه بترهلات شحمية متجمعة فوق عظام متآكلة.

ـ . . . .

ـ خرجت وأنت تلعن وتسخط وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتبسمل وتقول أشياء لم أسمعها، فقد بدأتُ بالبكاء من غير أن ألمس خدي. لا زالت تلك اللحظات الصامتة تتجدد أمامي كلما أتذكر يدك المكرمشة.

ـ . . . .

ـ والآن تنظر إليّ بهدوء، من دون حاجة إلى نطق أي حرف.

ـ . . . .

قلبت عيناي محتويات الغرفة كأنها تمسك بها. أطراف المساند الحمراء، مروحة السقف الزرقاء الباهتة، الجلالة المنقوشة، الليانات القطنية، تكايات الطُرف القاسية، طاولة الشاي في الركن، قدماه الجافتان. كنت أعرف أن في ليل الحفائر سحباً كثيرة تتكوّن من كلام قيل طوال النهار فتحيطها بهدوء متعب يتلمسه المارة وبعض السكان وربما تلتحف به العصافير النائمة على أشجار لوز الهند. عدت إليه فبدوت وكأنني أتكلم مع صخرة من الحجارة المتآكلة. ارتفع صوتي أمامه متسائلاً:

ـ لماذا لا تكلمني. . . ؟

ـ . . . .

ـ أكاد أُجن من هذا الصمت المريب.

ـ . . . .

ـ حسناً. . . إنك لا تريد أن تتكلم.

ـ . . .

ـ لماذا. . .؟

ـ . . .

ـ جعلت مني مسخاً، ولا تريد أن تقول لماذا. . .؟

ـ . . .

كنت أقف في وسط الغرفة بحذر غير ظاهر. نسمات الليل الحارة القادمة من النافذة تجفف العرق المتفصد من جبيني. أشعر ببرودة قليلة أرتعش لها. كُنت لا أتوقع منه في هذه اللحظة أن ينطق بحرف، فقد شعرت بأن كلماته قد تحجرت حروفها في حلقه. سمعته يسعل بشدة ناثراً قطرات من الدم على ملابسه المتسخة وطرف (المخدة) المتكىء عليها. الهواء المحيط بنا يلتف حول رقبتي وأنا أقف متحفزاً. لم تتغيّر نظرتي إليه ولم أعر ذلك الدم أدنى اهتمام، بل استمررت في تساؤلاتي متهكماً:

ـ سوف أسمع كل ما تقول. . . هذا إذا كان لديك ما تقول. . .؟

شعرت بأن كلماته تجمد أمام نظراتي، حتى لتبدو عاجزة عن التشكُّل أمامي. لا تستطيع أن تفارق شفتيه. كان يبتلع ريقه وكأنه يحاول أن يأكل الكلمات الحجرية، وكأن الصورة القديمة تغيب عنه ولكنها الآن تبدو على وجهه المتغضن تنطق من عينيه. يحاول جاهداً أن ينظر إلى أشياء الغرفة المبعثرة عله يجد ما يقول. التحفز الذي يلازمني لا أعرف لماذا دفعني لسؤاله بشدة:

ـ لماذا لا تتكلم. . .؟

كانت نظراتي إليه تحرق جفنيّ. حاول أن يتحرك من مكانه، لكنه اكتفى بأن أدار رأسه وتطلع إلى الشارع من النافذة صامتاً.

ـ . . . .

واصلت ملاحقته متسائلاً ناظراً إليه:

ـ . . . . هل فقدت صوتك. . .؟

كان ليل الحفائر يقتل الوقت بسواده الكثيف بالرغم من بزوغ القمر من بعيد. فلم تتغيّر الحفائر، منذ كانت ملتقى للجن قبل قرون عدة، إلى الآن. كانت الجن تسرح بها، تستند إلى صخورها الحارة، تبتسم ثم تتوسد التراب الخشن. لا تجد أي إنسان يشعر بوجودها، غير بعض الأجساد المتفحمة والجلود الجافة المتكسرة الأطراف. اعتاد أهل الحفائر على النوم في الليل منذ أن كانت حفائرَ، فيها بيوت من طين، إلى هذا الوقت الذي أصبحت فيه البيوت تضاء بالكهرباء.

لا أحد يسير في هذه الساعة من الليل. لم أكن قلقاً من أن يستمع إليّ أحد من العابرين، لذلك لم أهتم بإغلاق النافذة. هو أيضاً لم يمد يده إلى النافذة، التي تقترب من الأرض كل يوم. استمر في صمته واستمررت في كلامي:

ـ لا يبدو عليك الصمم. . . تكلم الآن.

ـ . . . .

ـ . . . . هيا تكلم. . .

ـ . . . .

ـ قُل ما تريد قبل أن أُجن. . .

ـ . . . .

كنت منفعلاً وهو صامت أمامي فبدوت وكأنني أصرخ في صحراء غارقة في الليل:

ـ تكلم...

ـ ...

ـ لماذا...؟ لماذا لا تتكلم...؟

كان قليل الحركة قبل أن يُنشر خبر موته. من سنوات لم يتحرك من مجلسه ولم يخرج من البيت. كان دائماً يرسل نظراته إلى فضاء الشارع، ليتحسس أجسام المارة. أدار رأسه ونظر إليّ. كانت كلماته تُسمع بصعوبة، كأنه نسي كيف يتكلم:

ـ إيش تبغاني أقول...؟

ـ ...!

أطلق سعلة خفيفة، بلع بعدها بعض البلغم داخل جوفه، وتابع بصوت أوضح قليلاً:

ـ نسيت منذ متى لم أخرج من البيت. سنون عمري راحت وأنا أذوب زي شمعة ما تعرف نورها لمين تحت هذه الشمس الحارقة؟ أمُّك ما أعطتني الفرصة لأتنفس كما أريد.

قفزت في مكاني كأن حية لسعتني. انتفضت أتطلع إليه في ذهول، صائحاً:

ـ أمي!... أمي!... كلما تحدثتُ معك عن شيء تعود للحديث عنها. كأنها أخطبوط كل قدم فيه تقيد جزءاً من حياتك...! لقد سئمتُ هذه الكلمات. لماذا تربط كل ما أريده منك بأمي...؟

ـ ...

ـ . . . لماذا تزوجتَها إذا كنت تخافها. . . ؟

ـ . . . .

ـ لماذا. . . ؟. . . تكلم.

ـ . . . .

ـ ليس لديك ما تقول. أليس كذلك. . . ؟ أعرف هذا. كلما تكلمتُ معك ألقى صمتك جداراً يمتد إلى السماء. . . .

ـ . . . .

حبات العرق تنساب من على جبينه وهو مقيد إلى السرير بقدمه المريضة. أخرج لسانه وبلل شفتيه بعد أن ابتلع ريقه. أشعر بأنه سيختنق مثلي. تابع كلامه:

ـ لم تكن أمك كما تعتقد. ما كنتُ أخافها. كانت كل شيء في حياتي؛ فرحي وعذابي؛ سعادتي وشقائي. عندما رأيتُها كنت أظن أنني أحلم. . . نعم أحلم.

كان صوته منخفضاً، يأتي من أبعاده السحيقة مختلطاً ببحة في حلقه. اعتقدت أنه لا يراني.

ـ كنت أنتَ معها. كنا ثلاثة؛ أنا وهي وأنت منذ اليوم الأول. كانت تنظر إليّ كأنني يجب أن أكون عبداً لها. لم أستطع أن أقاوم تلك النظرات. كانت لها عينان لا أستطيع أن أنظر إليهما. أموت في أول اليوم، وما أعرف كيف أمشي الين تروح الشمس.

سمعت في الغرفة ريحاً تصفر، بعد أن توقف عن الكلام. كنت غارقاً في الانتظار. أدركت أن لا فائدة من الانتظار. فقد ابتعد العجوز بنظره عني إلى الحفائر.

ـ . . .

ـ عدت إلى هذا الصمت الذي يكاد يقتلني. . .

كان كلامي ينطلق من بين شفتيّ ممزوجاً برذاذ من ريقي، وهو يجهد في إرسال نظراته إليّ ولا يعرف ما يقول. لمعت عيناه بشيء كالدموع. لم أعد أستطيع الانتظار. أنا أعرفه عندما يكون في مثل هذه الحالة. لا يقول شيئاً. أسرعت في الخروج وأغلقت الباب خلفي بعنف كسرت به هدوء الليل والهرة النائمة عند ركن الباب.

انتفض جسمي وحاولت أن أنهض. كانت مؤخرتي تؤلمني وكأن الصخرة الصغيرة قد انغرست بها. اندفعت نحو الباب أصفق درفته في الظلام وانطلق خارجاً من بيت سراج الأعرج. استقبلت الليل حاسر الرأس وثوبي تتلاعب به بعض النسمات الخفيفة. خرجت إلى الشارع تاركاً سراج الأعرج غارقاً في دمه الأسود. لا أعرف أين تأخذني قدماي في ذلك الليل. حزن وأفكارٌ تتصارع في رأسي. هل من الممكن أن يكون الزمن بساعاته ودقائقه مساعداً لي في التغلب على الأفعى التي في داخلي. فهي تتلوى وتتمدد حتى لكأنها تتلبَّسُ أمعائي وتمتص طاقتي. أحياناً أشعر بأنها تمتص دمائي. أخاف أنها قد تبتلعني يوماً وتجعلني نقطة سوداء داخل أحشائها.

سرت في أزقة الحفائر منكّساً رأسي لكي أتبين ما إذا كانت هناك أرض تحت قدمي أم لا. لستُ أهيمُ وحدي في هذا الليل. يصاحبني الرعبُ في هذا الظلام المنساب بطول الزقاق الترابي، فيما ساعتي تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. دخلت زقاق التمارة. انعطفتُ يساراً ناظراً إلى قدمي. أكاد أشتم رائحة الأقدام الصغيرة التي كانت تلعب ها هنا. أتلمس خطوات الحمير التي عبرت الأزقة. نسمات الليل

ترقُّ، حتى أكادُ أسمعها نشيداً، وروائح التراب الرطب تعبق حولي كأنها تتطاير بفرح. سرحت بنظراتي أتطلع إلى الجدران حولي. كنت أخطو خفيفاً على الأرض كأني لا أمشي، ثم أعود هادئاً وكأنني أعتلي النسيمَ إلى أن أصل إلى الأرض.

كانت بهجة خفيفة قد انسحبت إلى داخلي، وعندما تلفتُّ حولي لم أجد أحداً. تابعت سيري الطائر إلى أن توقفت بعد أن تسلل إليّ صوت نقرزان المزمار عند بدايته. تنصهر قطرات العرق من جبيني. أطلق العنان لجسمي فيبدأ بالدوران وتبدأ طقوس المزمار، ويصدح الزومال في السماء.

أشعر بتلك الحية وهي تكاد تقفز من مكانها على صوت طبلة المرد في المزمار. لا أستطيع أن أوقف الحية ورغبتها في القفز إلى النار. أشعر بنظراتها تنفذ إلى النار. كنتُ كالمجنون يرقص تحت عمود النور في الشارع. ذاتي تقترب من الأرض وعيناي تتفحصان التراب الذي تعفرت به قدماي الداميتان. أتطلع إليه لعلني أجد قطرات دم البكارة التي انسابت فوقه. لم أجد غير قطرات العرق المالحة، وقد تحجّر الملح وطغى على كل شيء.

انتصب جسمي. رفعت رأسي محدقاً في الجدران. نظراتي تعلّقت بها، وزاغت، كأنها تمارس طقوس عبادة. يداي تتلمّسانها، فأكاد أحس، للحظة، بأن هذه الجدران على وشك أن تبوح بأسماء من استندوا إليها.

أكاد أسمع خطوات اللصوص التي تتسلقها جرياً وراء الرزق الحرام. النوافذ بأعمدتها الحديدية الصدئة تنظر إليّ واجمة كصمتي الذي ألجأ إليه وأنا أنكش التراب.

توغلت داخل الأزقة عسى أن تظلم زواريب الطرقات هذه عليّ بالرغم من أعمدة النور المتباعدة. لم أكن أهتم بالظلام ولا إلى أين أصل حين سمعت من جوف الليل صوت سراج الأعرج يرتفع بكلمات غير واضحة من ناحية المسجد. كان مسجداً قديماً في ركن الجبل. اتجهت نحوه وحيرة الخوف تسبقني إليه، فقد تركت سراج الأعرج جثة هامدة ممدداً في غرفته، فمن أين أتى هذا الصوت. تبينت خيالاً لشخص يقف أمام باب المسجد. لم أكن أهذي. لست أتخيّل وهمّاً. لم يكن خداعاً لبصري، فأنا أرى شخصاً أمامي. لقد كان همّاً متجسّداً بظلال سراج الأعرج واقفاً بباب المسجد يرفع يديه كأنه يدعو اللّه ووجهه إلى الباب. وعندما اقتربت منه بحذر رأيت دموعه تنهمر وتبلل شاربه وشعْر لحيته الكثة. كبّر وبدأ الصلاة عند عتبة باب المسجد المغلق. . . !

هربت. جنون أن أتوقف لأتأكد من أنه سراج الأعرج. انطلقت داخل الأزقة مقلّباً نظري بين جدرانها كأنني أراها لأول مرة، مذهولاً، والصوت لا يزال يطاردني، إلى أن عدت إلى بيت سراج الأعرج. دفعت الباب بقوة يسبقني لهاثي. كان كل شيء كما تركته؛ الضوء الشاحب في الحوش، وباب الغرفة المفتوح، ثم جثة سراج الأعرج ممدّدة كما هي وقد زحفت قليلاً مبتعدة عن علبة الحليب (النيدو). ارتميت على السرير مفكراً في هذه الأمور التي تتواطأ مع الصدفة وكأنها ستقضي عليّ. تنبعث رائحة الدم من حولي وأجهش في البكاء.

■ ■ ■

عندما أفقت كان الضوء يصل إلى جميع أنحاء الغرفة. رأسي ثقيلٌ بألم. أسندت ظهري إلى الجدار دافعاً المخدةَ المبللة بالعرق بعيداً عني. أمسكت رأسي بيدي وأخذت نفساً عميقاً. تحسست بعيني أشياء الغرفة إلى أن وصلت إلى جثة سراج الأعرج اللعينة. حاولت أن أتذكر كيف وصلت إلى هنا، ولماذا تعفّرت قدماي بالتراب...؟ ومتى عادت الأضواء...؟ وما هذه الرائحة العفنة؟ ومن أين أتى هذا الجوع الشرس؟

يجب أن ينقضي بعض الوقت قبل أن أجد القدرة على التمييز بين ما هو حقيقة ويمكن أن أقوم بفعله، وما هو قول يقترب من الخيال، لا أستطيع أن أفعل أمامه أي شيء. فأنا أنظر بعينين متعبتين ومعدة يقرصها الجوع.

سوف أرتب الأحداث كما وقعت: مشيت في الطريق من البيت إلى وسط الشارع الذي يقسم الحفائر إلى نصفين. لم أرغب في الذهاب إلى أعلى الجبل ولكن معالم الطريق تتضح أمامي وكأنها مرسومة لخطواتي. كان شعوراً مدفوعاً برغبة مبهمة في الفرار، أجبرني على مواصلة السير رغماً عني.

ربما كانت رغبة الهروب في البداية يمكن أن تتحول إلى رغبة في الذهاب إلى أيّ مكان. كان همي أن أرمي بما لديّ من كلمات لأعود بعدها وحيداً.

كان الطريق سهلاً إلى الجبل من قبل، لكنه أصبح من أتعب الطرق، وأبعدها الآن. ومع انهمار حبات العرق من جبيني، بدأت في النظر إلى قدميّ وما تخلّفانه من آثار على الأرض. أدركت أنني أسحبهما، مثيراً بعض الغبار حولي. لم أحس بالحصى والحجارة الصغيرة التي تصطدم بقدميّ، فلم أكن أحسُّ بالألم. كانت أصوات الحصى تتلاشى، فلا أنصتُ لها.

قد أُجَنُّ، إن عدتُ وعشتُ اللحظات ذاتها، مرةً أخرى، حتى ولو كان المكان مختلفاً. أتذكر أنني ظللت متعباً إلى أن عدت إلى بيت أبي مكدوداً.

ليس لدي ما يبرر هذه الذكريات وإلحاحها عليّ وأنا أتضوَّر من الجوع في بيت سراج الأعرج العفن. ولكنني أحسستُ بمثل هذا التعب عندما كنت في غرفتي في بيت والدي. كانت الشمس قد انسحبت من نافذتي، وكان الضوء هو أيضاً، ينسحب ببطء على محتويات غرفتي المألوفة. المكتب القديم المغطى بدفاتر الطلاب والكتب المقررة وكتب المعلم وقصاصات من جرائد قديمة وبعض أعداد من جريدة «**الندوة**»، وكذلك أوراق متناثرة حول الطاولة بعضها متساقط على الأرض، تبدو كلُّها وكأنها منسية منذ سنين. الكرسي الدوار القديم، الذي أصبح مع الوقت متوقفاً عن الحركة، اللوحة المعلقة خلف المكتب لآية الكرسي، جميعها انسحبت من أمكنتها وتحولت مع خروج الضوء من النافذة إلى ظلالٍ هشة تتلاعب بها نسمات الليل.

حتى (الكرويتة) القديمة ذات الارتفاع القريب من المتر والتي أسميها المركاز الداخلي، كانت تستند إلى الجدار المقابل للنافذة الوحيدة في الغرفة. أصبحتُ أستخدم الفراغ الذي تحتها مخزناً للكتب القديمة.

السرير الذي أنام عليه كل يوم مغطى بمرتبة محشوة بقطن (الجاوه)، ومحتويات الغرفة موضوعة على مفرشة صوف لا أعرف من اشتراها، فهي موجودة منذ أصبحت هذه الغرفة خاصتي.

رفعت رأسي وأخذت أحدق في آية الكرسي المعلقة وأنا أتعجب من تلك القوة العجيبة التي أتتني أمام أبي فأصرخ في وجهه بمثل ذلك الصراخ. يزيد استغرابي من أبي عندما أخذ في محاورتي من غير أن ينتبه إلى صوتي أو طريقة كلامي معه. عادةً، لم تكن هذه هي الطريقة التي أتحدث بها مع أبي. فقد زرع داخلي غابات من الرعب تقف أشجارها كسياج أمام رغباتي عندما أراه. كان خوفي منه يتراصف رعباً فوق رعب، وجزعاً فوق جزع، ويصير داخلي ليلاً دامساً يتكثّف سواده ظلمةً فوق ظلمة؛ فلا أعود أرى شيئاً إلا خوفي، وهجسي من هذه الظلمات التي تلفّ نفسي حتى أصبحتُ محاطاً بظلّ هائل من السواد جعل الصورة تهتز فلم أعد أعرف ما يجب أن أعمل. يخطر لي أحياناً أنني ربما أتوقف عن الشعور بما حولي وكأنني قد ارتكبت خطيئة.

لم أجد ذلك السياج أو تلك الظلمات عندما تحدثت آخر مرة مع أبي. كان أبي أمامي كأنه أحد طلابي في المدرسة، أو هكذا بدا لي. بل لقد بدا كطالب بليد لم يقم بعمل الواجب. ووجدت الكلمات تنطلق من فمي كأنَّ شخصاً آخر، غيري، ينطق بها.

أخذت نفَساً أستجمع به قوتي. نزلت من السرير واتجهت إلى

الحمام، وقدماي تتخبطان بفناجين الشاي الصغيرة المتسخة.

لم يكن الماء بارداً، لكنه أصابني بانتعاش كبير. يجب أن يكون هذا اليوم إجازة. بهذا المنطق اعتبرته إجازة. ارتديت ملابسي. تأكدت من أن العقال في مكانه و(مرزاب) الغترة موزون في المنتصف. نزلت إلى الطابق الأرضي. مشيت في الدهليز المؤدي إلى باب الشارع. نظرت إلى باب غرفة الحجامة. لم أطرقه. كنت أحاول الابتعاد عنه. خرجت من البيت وأنا أتطلع إلى نور الشمس. الضوء شبه بارد، فزقاق الحجامة الذي يقع في نهايته بيتنا، يرسل نسمات من الهواء البارد تداعب أطراف غترتي. أغلقت الباب، سرت بمحاذاة بيتنا إلى أن وصلت إلى ركنه ثم انعطفت إلى اليمين. نظرت إلى نافذة غرفة أبي كأنني وجدته نائماً، ومبسم ليّ الشيشة ملقى على جانب صدره.

أسرعت الخطى مبتعداً عن ركن المنزل. أبي لا يحب أن يوقظه أحد من الشارع. تعلمت هذا منذ زمن بعيد لا أذكره، ولكني أتحسس أمكنة الضرب على فخذي الأيمن كلما نظرت إليه بطرف عيني.

كان سراج الأعرج أول من رأيت، يفاجئني كعادته كلما رآني، بطلبه المعتاد وبصوته الأجش، صاح قائلاً:

ـ يا عم أعطني أي شيء آكله. . . أنا جيعان.

هذه العبارة لا تفارق فمه في الصباح. قالها لي وأنا أتأمله يجوب الشوارع باحثاً عن شيء لا أتوقع أن يجده أبداً. كان صوته مفاجئاً لي، فأجبته من دون تفكير:

ـ إيش تبغي يا سراج؟

ـ أنا جيعان. . .

ـ أنا رايح لعم قدري. . . تعال كل فول معايا.

ـ ما أبغي فول.

لم أصدّق ما أسمع. استغربتُ كثيراً أن يتفوّه سراج الأعرج بمثل هذه الكلمات، فهذه أول مرة أراه يرفض الأكل.

ـ ما تبغي فول...؟

ـ أيوه... ما أبغي فول.

ـ إيش تبغي يا سيدي...؟

ـ شربة وتقاطيع مشكلة من عمر صدقة.

ـ كمان...! شربة وتقاطيع مشكلة...!

ـ ...

ـ طيب يا سيدي نروح لعم صدقة ولا تزعل.

ـ ونأكل شربة وتقاطيع...؟

ـ ونأكل شربة وتقاطيع.

أستغرب من سراج الأعرج بعض التصرفات، وهذا الطلب أحدها. لكني هذا الصباح صافي الذهن وعلى استعداد لمجاراة سراج إلى آخر ما يريد. أعرف أنه يسأل كل من يمر في الشارع إن كان قد شاهد طفلاً صغيراً لا يتكلم، أو شاهد حذاءه، أو شاهد الحجة فاطمة (التكرونية) التي تبيع الفصفص و (القورو)[٨]. وفي كل مرة يظل يسأل عن شيء جديد إلى أن يشعر بالجوع، فينطلق إلى دكان أبي، مسعود تكنيري، للحجامة، ويطلق عبارته المشهورة:

(٨) القورو: ثمرة مُرّة تُمضغ ويُمتص ماؤها مدة من الزمن، تؤدي إلى تنشيط الجسم وتساعد على السهر.

ـ يا عم أنا جيعان.

فيعطيه أبي ما تبقى من إفطاره البسيط الذي يتكون من جزء من (تميسة) أو قليل من المعصوب. عندما كنت صغيراً كنت أشاهد هذا يحدث أمامي، كل يوم تقريباً.

كان عم صدقة فران يجيد عمل الشربة والتقاطيع والكبد المقلي على الصاج. وعلى الرغم من أن التقاطيع المشكلة ليست سوى قطع من الكرشة والكبدة والكلاوي وأشياء أخرى لا أتذكر منها غير البهارات والملح، إلاَّ أن ربات البيوت لا يُجِدْنَ إتقانَ طبخ تلك الأكلات. بل على العكس، كن يرسلن أولادهن إليه ليشتروا منه الكبدة والتقاطيع، وكان يُضرب به المثل فيقال:

ـ أعرف أسوي الكبدة ولا عم صدقة فران.

ويبدو أننا تأخرنا بعض الوقت، فقد كان عم صدقة يقوم بتنظيف بعض الأدوات الخاصة بالطبخ إذ انتهى من كل شيء. فعندما رآنا هز رأسه المثقل بالعمامة الحلبية وصوته يخرج من بين أسنانه المصفرة قائلاً:

ـ كنت أعرف أنك جاي. لا تخاف. نصيبك محفوظ.

ـ كيف حالك يا عم صدقة؟

ـ بنعمة والحمد لله... إيش تبغي يا سراج؟

ـ لا يا عم صدقة هادا جاي معايا... نفسه في كبدتك يا عم صدقة.

ـ ولا يهمك يا أستاذ... لأجل عين تكرم مدينة.

كان عم صدقة فران من رجال الحفائر المعروفين على مستوى مكة

كلها. ولا يستطيع أي شخص أن يتكلم عنه إلاً بكل خير. وأنا أعرف أنه من أعز أصدقاء أبي، أجد فيه جزءاً من أبي. جلس سراج الأعرج على إحدى الكراسي النظيفة منكّساً رأسه كأنه لا يرى أحداً. أستعيد الصورة التي قالها أبي عن نفسه البارحة فأجد بعض التناقض، ربما الزمن هو السبب الرئيسي فيه. صراخي في وجه أبي أكاد أتمثّله كأنه ينطلق في وجه عم صدقة، ويتفرع ذلك الصراخ ويبتعد عني فلا أراه. صداع رأسي يثقل عليّ الأمور ويُبعد كلمات سراج الأعرج الخفيفة فتتداخل وتتفرق ثم تتماسك لترسم صورة قريبة جداً مني. أحاول أن أتلمسها، أن أتحسسها، أن أهمس بها، ولا أعرف هل أفهمها أم أنها لا تعيرني التفاتة تنسيني ما أنا فيه.

أحاول أن أقترب من الدخان المنبعث من الصاج وقد تطاير اللهب المنبعث من الزيت، فتدور بي الدنيا إلى أن أجد تلك الأفعى داخلي تنظر من محجريّ، من جوار عيني فلا أرى. أشعر بذنَبها يستطيل ويتمدد حتى أحسبه يطلع من أذني اليمنى. ليتني أقدر على إمساك هذا الذنب. إنه طويل وأكاد أجزم بأنه يحيط بالحفائر كلها. ينغرس في بطون البيوت ويتمسح في شوارعها وأزقتها المتربة ويصل إليّ مرّة أخرى وأنا أتمزق من الألم.

- يا عم ما تشوفني.

- . . .

كانت تصلني الأصوات كأنها تتحدث مع شخص غيري، من دون أن أتحرك. لم تصلني أشعة الشمس المسلطة على مكة كلها. كنت تحت تأثير ذنب الأفعى وضغطها المؤلم على معدتي، فما عدتُ أشعر بما حولي.

ـ يا عم...

ـ ...

كنت أتنفس بصعوبة، وقد انقلب صحن الخل الصغير الذي أمامي فتدلّى خيط منه ممزوجاً بفتات الخبز، وأخذ يقطر على ثوبي من دون أن أتحرك، ناظراً إلى سراج الأعرج (المستهبل) بجواري، شاكّاً في هبله المصطنع هذا.

ماذا...؟ هل بدأت أصدق هذه القصص المختلقة...؟ وأتعامل مع الناس على أنها حقيقة، ويجب أن يعتبروها جزءاً من حياتهم. ولكن كيف سيعرفون أنهم عاشوا في داخلي وسردوا عليّ جزءاً من حيواتهم. يبدو أنني لم أعد أفرّق بين الواقع وهذا الخيال الغريب.

هل جُننت..؟ قفز هذا في رأسي بغتة. هززت رأسي طارداً هذه الأفكار ومحاولاً التماسك. نظّفتُ ثوبي من الخل المنساب فوقه، ثم نظرت إلى سراج وتظاهرت بالقرف صائحاً:

ـ أيوه... أيوه... سامعك... إيش تبغي...؟

ـ ...

لم أكن مستعداً لسماعه. فقد استولى عليّ خوف الجنون مع صداع جعلني أشعر به ينساب كانسياب الأفعى من عينيّ بألم، مما جعلني أرسل الأنين إلى أذني.

كان الألم يتلمس خدي ويتقاطر من شحمة أذني زيتاً بلا رائحة. وهذه الأفعى أيضاً لست متأكداً من وجودها. أشعر بها فقط. حتى أنني كنت أشكك أصلا إن كانت أفعى، فهي تتحرك وتتمدد في حيز حسدي الضيق ولا أعرف كيف دخلت إليه. ربما تكون أمعائي، وهذا الألم يتجدد كلما أكلت شيئاً ما. لكنني أشعر بها كحيوان تسلّل إلى داخلي

ربما طلباً للدفء أو للغذاء. ملمسه الناعم وحركته الملساء هما ما جعلاني أشعر به كحية عمياء في داخل جسدي.

كثيراً ما كانت أمي تتراءى لي من دون ملامح: مجرد رأس وجسد محاطين بأنفاس أبي العجوز. أشعر بالقطرات تتحول إلى دم ينساب من أذني. لم أعد أسمع. تركت الكرسي ومشيت، ساقتني خطاي إلى داخل الحفائر من دون أن أنظر خلفي...

اختلطت أصوات الباعة ونهيق حمار العمدة بصوت المؤذن يؤذّن لصلاة الظهر. لم أجد مبرراً للعودة إلى البيت. فالغضب وبكاء طفل الحجة فاطمة التكرونية اختلطا عليّ مع شمس الظهيرة. أحس بأن هناك من يناديني. أرجو الشمس أن تطفئ برودة الغضب داخلي، الذي أتاني من غير مناسبة كأنه تاه في جبال مكة ووقف ليسألني الطريق.

أرتجف من البرد، وأحسُّ به ينخر جسمي. أطرافي متجمدة. أنا لست ذلك المسكين الأبله الذي يضحك عليه الناس خارج البيت. لن أسمح، بعد اليوم، لأحد بأن يضحك عليّ. سوف أكون أنا الأقوى.

تماوجت في مخيلتي الصور فلم أعد أفرق بين الشوارع والأزقة المحيطة بي.

كنت كمن يمشي من غير أن يتحرك. يخيل إليّ أنني أصل إلى المكان الذي أريده.

قدماي تسيران بي إلى أعلى الجبل. لم أذهب إلى المسجد لأصلي، ومع ذلك شعرت بأن الإمام قد أطال في التشهد الأخير وسلم منهياً الصلاة، وأحسستُ بالأمان الذي أحسه عادةً بعد كل فرض أؤديه.

الشمس تصب جام غضبها على رأسي وأنا كأنني صرت هيكلاً

فارغاً، فلا أشعر بشيء. كأنني فقدت الإحساس. كلمات أبي لا تفارقني. أتألم منها. أين ذهبت قوتي؟ لم أستطع مواجهة الناس.

كلما اقتربت من شيء أتطلع إليه بعيني أبي، أنسى الكلمات وأصواتها. سحره يهزني. لا أقوى على المجابهة. أفكاري أقوى مني برغم ضعفها. أستمد قوتي من ضعفي.

أكاد أُجن.

لا أستطيع التنفس.

ملعونة هذه الشمس التي لم تدع لي قطرة ماء أبلّ بها ريقي.

ذابت الثلوج في صدري فتفصد الماء من جسدي عرقاً لا يصل إلى حلقي المتشقق.

جلست في أعلى الجبل. تذكرت المسجد والإمام.

الشمس تسربت إلى تجاويف رأسي. أفقدتني القدرة على تحديد رغباتي.

لم أدرك أين أتجه. كل الاتجاهات أصبحت من دون معنى.

أعتصر ما تبقى مني. ما عاد يعني لي إن عدت إلى المنزل أو ذهبت إلى الجحيم.

جلست على الطريق وحرارة التراب تتسلل إلى مؤخرتي. تبخر عرقها. الشمس تلفني من كل مكان. نزلت متخاذلاً وقد اشتعلت وجنتاي. قدماي متربتان وغترتي مبللة بالعرق.

اقتربت من الحرم والحرارة تصهر رأسي. أشاهد الأعمدة الرخامية فلا أستطيع أن أحدد أي توسعة. تداخلت توسعة الملك عبد العزيز

وتوسعة الملك فهد مع الحرم القديم. لم أعد أفرّق إن كنت داخل الحرم أم في سوق الصغير المتهدم.

أقترب من الكعبة. أقترب أكثر إلى أن يلامس أنفي ذلك الرداء المهيب.

تتعذب نفسي أكثر، تختلط دموعي بتأوهات تكاد تخنق أنفاسي. أكاد أغيب عن الوعي. أكاد أصيرُ روحاً من دون جسد. وأبدأ بالطواف مردداً سوراً من القرآن لا أتذكر متى حفظتها.

مسحت دموعي ونهضت أبحث عن شيء آكله، راكلاً كل ما أجده في الطريق. حتى جثة سراج الأعرج وقدم السرير وعلبة سوداء رأيتها، لا أعرف من أين أتت.

■ ■ ■

زاد تصاعد الرائحة الغريبة في الغرفة وزادت حدة الجوع لحظة حملي لصينية الطعام البائسة. كان طعاماً قديماً. لذلك عندما أمسكت بكسرة الخبز الجافة، مسحت الغبار الخفيف عنها، وشرعت آكلها جافة وصوت تكسرها في فمي يتضخم بجوار أذني طاغياً على صمت الغرفة.

لم يكن إحساس الشبع هو الذي أجبرني على النظر إلى جثة سراج الأعرج الممددة عند قدمي، بل ذلك الإحساس اللدن عندما دست على كف سراج الأعرج. كان إحساساً يشبه (دعس) قشرة موز.

رفعت قدمي خائفاً بسرعة لأشعر بعدها بالحيرة في ما سأفعل بهذه الجثة. هل أدفنها في البيت وأخرج؟ أم أتركها وأخرج مكتفياً بالمراقبة فقط؟

كانت حيرة سيئة أرجعتني إلى السرير بملل مستعيداً حيرتي القديمة. كنت أعرف أنني اسماً أنتمي إلى أبي. أو هكذا هو يعتقد. لقد أوحى لي بذلك في كلماته من غير أن يصرح بذلك تماماً. كان يحاول أن يقول إنني لست ابنه ولكنه لم يقلها قط أمامي. آلمني كلامه. أكاد أتمنى موتي.

طغت حيرتي القديمة على جثة سراج الأعرج، فتبدت إشاعة موت أبي أمامي حقيقة تكاد تدفعني إلى الجنون. ذهبت إلى بيت ستي معتوقة القرملية. عندما دخلت وسلمت جلست إلى جوارها في ركن المقعد الطويل. كانت عيناي تتفحصان (تنزيلة) الشيشة العدنية ذات اللون الفضي، وقد تناثرت النقوش السوداء لخشب لا أعرف نوعه. لمعان ضوء الغرفة يزيد من استدارة (تنزيلة) الشيشة وكأنه نُحِت البارحة.

بادرتها وكأنني ألقي درساً في الفصل:

ـ أنا أعرف أنكِ تعرفي أبويا من زمان. أبغاكِ تحكي لي عن أبويا.

ـ . . . ؟

كُنت ألمح وجه ستي معتوقة الأسمر يرتسم عليه تساؤل عما أريد أن أعرف، وهي تأخذ نفساً من الشيشة الجراك التي لا تفارقها ما دامت داخل بيتها. لم أزرها في بيتها مرةً، إلاّ ووجدتها جوار الشيشة ممسكة ليّها، تتلذذ بأخذ الأنفاس متمهلة، من دون أن تكترث بمن حولها.

أجلس إلى جوارها وأنا لا أشعر بجسمي بعد أن عدت من الحرم. أكاد أنهار من التعب ولظى الشمس. كنت قد غسلت وجهي وكل جسدي تقريباً بالزمزم بعد أن شربت منه حتى شعرت بأنني لم أعد جائعا.

كانت ستي معتوقة تجلس على (ليانة) من القطن (الجاوي)، وتتكئ على جنبها الأيمن من غير أن تلتفت إليّ. أعرف أن طباعها جامدة معي، لهذا لم أعرها اهتماماً، بل شجعتني هذه المعرفة على مواصلة الحديث. لم أستطع أن أتحول إلى أي موضوع آخر. أريد أن أعرف كل شيء. نعم كل شيء. لم أنظر إليها بل تطلعت إلى الشيشة، ومن غير أن أشعر سمعت الكلمات تنساب من فمي تسأل:

ـ هو كان أبويا مشكلجي يا ستي. . . ؟

توقفت عن سَحْب الدخان، وجمدت شفتاها وجميع عضلات وجهها لبرهة. قالت غير مصدقة، ومستغربة:

ـ إيش. . . ؟

أجبت بعناد وكأني لم أشعر بها.

ـ أبوي كان مشكلجي. . . ؟

استدارت قليلاً بجسمها وأنزلت الليّ. تطلعت إليّ وقد اتسعت عيناها وانعقد حاجباها في المنتصف مرددة باستغراب:

ـ مشكلجي. . . ؟

ـ أيوه مشكلجي.

ـ يا ولدي الرجال دائماً لهم مشاكلهم.

ـ ولهم مصائبهم كمان.

ـ أعوذ بالله من فين تجيب هذا الكلام. . . ؟

وبإصرار جدلي كبير أقفلت أمامها الطريق:

ـ أنا ما أبغي أسئلة. . . جاوبيني وبس.

كان ليّ الشيشة قد تصلب في يدها مما جعلها تهزه في وجهي وهي تتساءل بحزم:

ـ ولد. . . إيش تقول. . . ؟ أنت جُننت؟ إيش قلّة الأدب هادي. . . ؟

ـ الأدب ما لو دخل في سؤالي يا ستي معتوقة. . . !

انبسطت أساريرها عن ابتسامة ساخرة مصطنعة شعرت معها بتكلّفها نفاد صبرها.

ـ اللّه. . . اللّه. . . إيش هدا الجيل. . .؟ أنت الأستاذ المتعلم اللي يدرِّس الأولاد في المدرسة. . . يقول هذا الكلام. . .إيش نقول عن الأولاد الصغار. . .؟

أربكتني كلماتها، فلم أجد الكلمات التي يمكن أن تنقذ موقفي. أحرجني الموقفُ هذا، فقلت لستي مبرِّراً:

ـ يا ستي معتوقة مو قصدي شيء. . . أنا أبغي أعرف الحقيقة وبس.

ـ حقيقة فـ عينك. . . أية حقيقة تبغي تعرفها. . .؟

قالتها بحزم أنساني لبرهة ما أريد أن أعرف فتجاهلت كلماتها وقلت:

ـ أبغي أعرف إيش كان أبويا يسوّي زمان. . . لمن كان شباب؟

سحبت نَفَساً من الشيشة وأخرجت كلماتها من بين الدخان وكأنها تقرر شيئاً مسلَّماً به ولا دخل لي فيه:

ـ ليش. . .؟. . . ليش تبغي تعرف. . .؟ هذا كان زمان وراح. . . إيش ينفعك اليوم. . .؟

اندفعتُ في الكلام من غير أي حواجز قائلاً:

ـ يا ستي معتوقة. . . الحاضر هو امتداد للماضي. كيف نستطيع أن نفهم ما بين أيدينا إذا ما عرفت أنا اللّي كان زمان. . يعني زمان يسوي بكره. . . فـ إيش كان زمان يسوي أبويا. . .؟

كانت قد استدارت نحوي وسحبت نَفَساً آخر من الشيشة وهي تنظر إليّ غير مصدقة ما تسمع، ثم أجابت متأففة:

ـ أنا ما فهمت ولا شي من اللي قلته. . . وما أبغي أتكلم معاك. . . هيا روح قبل ما أزعل منك. . .!

نظرت نحوها معتذراً بعد أن عادت إلى وضعها وأصبحت بجواري تنظر إلى الشيشة:

ـ أنا ما قصدت أزعلك يا ستي. . . أنا سألتك وأتحدث إليكِ عن. . .

من دون أن تنظر إليّ سمعت صوتها يخرج ممزوجاً بالدخان:

ـ روح ولا تجي حتى أرسل لك سراج الأعرج.

أعرف ستي معتوقة جيداً، فعندما تريد أن تقول شيئاً تقوله بلا مقدمات، لذلك كنت أنصت إلى ما تقول من غير أن أعترض. نهضت متجهاً إلى الباب وأنا أتمتم:

ـ طيب. . . مع السلامة.

ـ . . .

لم أحسب عدد الأيام منذ أن خرجت من بيت ستي معتوقة القرملية. فقد تسرّب الوقت بسرعة، أشك في أنها عدة شهور.

صورتها وهي جالسة مرتسمة أمامي اليوم. كانت ممسكة بليّ الشيشة الجراك ودخانها الكثيف يتصاعد من أنفاسها وفمها يتداخل بتلذذ مع صوتها المبحوح، وأصوات كثيرة حولي وأنا أسير.

■ ■ ■

استولت عليّ فكرة دفن سراج الأعرج في بيته. استولت عليّ تماماً فخرجت من الغرفة أبحث عن (كريك) أو أية أداة للحفر. بحثت في الحوش فلم أجد شيئاً. خرجت بعدها من بيت سراج الأعرج صافقاً الباب خلفي. نزلت من الجبل إلى أن انعطفت يميناً محاذياً بيت عبد القادر بايلة. رائحة الغبار المتراكم على طرفي زقاق التمارة تتصاعد وتنتشر بطول الشارع. قرصات البعوض اللعين جعلتني أحك ظهر كفي الأيمن. كان بعض (الجاوه)(٩) جالسين عند عتبة البيت المدفون نصفها بالسفلتة الجديدة القديمة للشارع، ورائحة دخانهم الآسيوي تعبق في الشارع كأنها تتبعهم أينما ذهبوا. اشتريت علبة سجائر من بقالة عم سعيد في ركن الزقاق المؤدي إلى مدرسة الإمام علي بن أبي طالب. انعطفت يساراً، بمحاذاة سور المدرسة. تخطيت البوابة الرصاصية اللون المغلقة، فاليوم الخميس، وحرارة الظهيرة في الحفائر على أشدها. كانت هذه البوابة تتعقبني أينما ذهبت إلى أن جعلت منها مقياساً للكبر. عندما أتهكم على أحدهم أجعله يبدو أقدم من طلاء باب

---

(٩) الجاوه: لقب يُطلَق على الأندونيسيين والماليزيين، وربما جميع شعوب جنوب شرق آسيا!

المدرسة، أو ذمته أوسع من باب المدرسة. حتى في أحلامي كثيراً ما أشاهد الساحات الشاسعة. عندما أجتاز بوابة المدرسة الرصاصية، حينها أدرك مدى اتساعها. كانت منفذاً إلى جميع أجزاء العالم الواسعة.

ارتفعت أصوات كثيرة بشكل مفاجئ جواري، لم أستطع أن أميّز منها سوى صوت الجزار معتوق المحشين صائحاً:

- وعليكم السلام...

- ...

لم ألتفت إليه وظللت أمشي من غير توقف، ولكنه بإصرار متعمّداً إحراجي، ردد بصوتٍ عالٍ

- السلام للّه يا جماعة... يا أستاذ...

نظرت إليه متظاهراً بالأسف:

- يا هلا... السلام عليكم...

- يا هوه... لا سلام ولا كلام كأننا كنا البارحة مع بعض؟

عدت إليه حيث يقف وأنا أبتسم. وقفت أمامه. خلفه ملحمته المغسولة الأرض للتوّ، تنبعث منها روائح اللحم. لم أدرِ ما الذي جعلني أقارن بين كلامه وهذه الرائحة التي أشعر بها تملأ أنفي. أحس بأنَّ لكلماته أيضاً، الرائحة نفسها المنبعثة من ملحمته، هذه الرائحة التي تتبعه دائماً حتى أيام الجمع عندما يدخل المسجد ليصلي.

نظرت إلى قطعة اللحم المتدلية من (الشنكار)[١٠]. إنها القطعة الوحيدة المتبقية لديه. كان معتوق المحشين يحدّق فيَّ مستغرباً، وأنا

---

(١٠) الشنكار: خطاف تعليق اللحم.

أجهد في البحث عن وسيلة أعتذر بها إليه:

ـ قلنا سلام عليكم.

ـ بعد إيه . . .

لا يزالُ ينظر إليّ بخبث. ارتسمت على وجهه ملامح عتاب وابتسامة بسيطة. ثم أردف بعد أن تحسس شماغه الموضوع على كتفه كيفما اتفق:

ـ معليش. . . وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته. . . يا سيدي. . . أنا الغلطان.

سألته بخبث مماثل وبنوع من التظاهر بالاستفسار:

ـ غلطان ولاّ زعلان. . .

ـ زعلان. . . ربنا ما يجيب زعل إن شاء اللّه. . . أنا أحببت أن أسلم بس!

ـ معليش يا عم معتوق. . . الواحد في هذه الدنيا ما هو عارف رأسه من رجليه. . . !

ـ واللّه الدنيا تغيّرت. . . أنا حسبت أن العلم ينوّر العقل، لكن يظهر أن حساباتي طلعت غلط. . . !

بانت سِنُّه الذهبية وهو يبتسم، وأنا أستغرب ما قال، فحولت نظري إلى ركن المحل من الخارج حيث كانت تلك الهرة الضخمة (تتمطّى) وتتمسح بالجدار الاسمنتي الخشن. كانت تبدو كأنها تمشي على أطراف أقدامها، استطالت سيقانها وتمدد جسمها فبدا وكأنه مشدود من أطرافه الأربعة إلى إطار كان معلقاً على الجدار. نفضت رأسي محاولاً التماسك أمامه. سألته.

ـ ليش. . . أنت كيف حسبتها. . .؟

ـ يا سيدي. . . شكل العلم يكبس على العقل. . . زي (فتة المقادم)[11] لمن تكبس على المعدة وتروح نازلة على الركب، يصير الإنسان بعدها لا هو عارف رأسه من رجوله. . .

كانت ضحكته الرنانة تصل إلى أطراف الشارع، فيهتز لها كرشه المنتفخ. ابتسمت محاولاً أن أوقفه عن مواصلة ضحكه:

ـ . . . مقادم إيش اللي تتكلم عنها يا عم معتوق. . .؟. . . اللّه يسامحك.

ـ اللّه يسامحك أنت. . . أنت بتسبني. . .؟

ـ اللّه. . . اللّه. . . يا عم معتوق أنت حتقلبها عليّ أنا. . .؟

ـ يا سيدي، لا أقلبها ولا تقلبها. خليها مكانها. . . !

ـ . . .

ـ شوف المقادم اللي ما هي عاجبتك. . . تجيني بكرة تدور عليها بشمعة.

ـ . . .

ـ وما أعطيك شي.

نظرت إليه وقد نفد صبري. كنت أعرفه عندما تنسحب الكلمات من فمه كسلسلة ليس لها نهاية.

ـ ويعدين؟

---

(١١) فتة المقادم: أكلة شعبية في مكة، يُعتقد أنها تنشّط القدرة الجنسية لدى الرجال.

ـ تنطفئ الشمعة. . .

وتعالت مرة أخرى، ضحكته المصحوبة بتلك الهزات العنيفة من كرشه، مما لفت انتباه بعض المارة إلينا. كانت الابتسامات ترتسم على وجوههم من دون أن يتوقفوا. بدت الهرة مشدودة أكثر داخل الإطار وإن كانت ما تزال في مكانها، والإطار اتّسع قليلاً. حاولت الهروب سريعاً فتراجعت إلى الخلف قاصداً أن أنهي حديثي معه:

ـ مع السلامة. أشوفك بعدين يا عم معتوق. . .

التفتُّ إلى داخل المحل لأتأكد من أن قطعة اللحم المعلقة لا تزال تتحرك، لكني بسرعة حولت نظري وأدرت ظهري مبتعداً. وصلتني كلماته متقطعة بضحكاته الساخرة:

ـ مع السلامة. . .

ـ . . . .

ـ ربنا ينور مخك.

ـ . . . .

ـ ويبعد عنك المقادم.

ابتعدت عنه وأنا بالكاد أستطيع السير. كدت أتعرقل بقدمي. رائحة اللحم لا تزالُ تملأ رأسي وأنفي، وقطعة اللحم المعلقة أحسُّ بها شيئاً مسلوخاً من جسدي، تحاول راسمة ارتعاشة الموت النهائي من دون مقدمات. نظرتُ إلى الأرض محاولاً التماسك، إلاّ أن جسمي ترنح قليلاً، وبرغم ذلك استطعت أن أتمالك مشيتي. رمقت معتوق المحشين بعدها بطرف عيني، كان قد عاد إلى دنياه بين لحمته وزبائنه. تابعت سيري إلى بيت والدي. فتحت الباب فاستقبلتني عتمة الدهليز

الرطبة. راحت عيناي تجوسان بين الجدران بلا هوادة. صعدت مباشرة إلى السطح حيث تتكوم هناك أشياء كثيرة صدئة. لم يستغرق العثور على (كريك) و(فاروع) وقتاً كثيراً. عدت بهما إلى الدهليز وكأنني تمسمرت أمام الباب من الداخل. لم يكن بمقدوري أن أخرج حاملاً عدة الحفر من البيت. حتماً ستتبعني نظرات الحفائر متسائلة. فنظرات الناس المتشككة لا ترحم. فضلت، لذلك، البقاء في بيت والدي مكتفياً بوضع (الكريك) و (الفاروع) عند طرف الباب وصعدت إلى غرفتي منتظراً بعض الوقت.

■ ■ ■

في هذا الليل الحزين أشعر بألمي في سواده البغيض. رغبتي في الذهاب إلى بيت سراج الأعرج غائمة بعد أن أفقت من غفوتي القلقة. رغبتي تبخرت سريعاً ليظهر مكانها الذهاب إلى حوش الشناقطة علّني أجد حليمة الجبرتية وابنتها. كانت حليمة تعرف كيف تجعلني مسروراً، مهما كانت حالتي المزاجية معكرة، سواء بحديثها الشيق الممزوج بنكات جنسية لاذعة، أو بحركات وجهها التي تتصنع فيها البراءة والاستغراب الخبيث فتجعلني أتلوّى من الضحك، ليرتفع صوتها بخبث ضاحك:

ـ زي أبوك يا ابن الكلب لمّن يضحك... ما أقدر أجاريه!

ـ ...

كانت تقول تلك الكلمات وقد وضعت يدها على فمها، وصدرها المترهل يرتج من خلف دموعي المنهمرة بينما أنا أتلوى من ألم معدتي محاولاً إسكاتها بإشارة من يدي بلا فائدة. فقد كانت تجد متعة في إيلامي من الضحك لدرجة تجعلني أتوقف فجأة قبل أن تتمزق أمعائي.

لا أعرف في حوش الشناقطة سوى حليمة وابنتها برغم أن الحوش، المكدس بأكوام من صناديق التنك، يمتلئ بخلق كثيرين لا

أعرف منهم سوى ذلك السواد الخفيف لدى الرجال وتلك الأرداف الضخمة تهتز معها صدور النساء، وشوارب الرجال، عند سيرهن.

لا أدري ماذا كان يدفعني للذهاب إلى جوار سور المدرسة. كنتُ أتقصَّد السير هناك في الشارع الرئيسي في الحفائر علّي أتناسى ما يكدّرني. على طول الطريق، تتراكم الأتربة مع بعض علب البيبسي الفارغة، فيما روائح البول تفوح من سور المدرسة. هل من عادة أطفال المدرسة أن يبولوا هنا، أم هي كلاب الحفائر الهزيلة الخائفة تفعلها. كنتُ أنظر إلى السور وقد ارتسمت عليه بعض الأقدام الصغيرة المتسخة مختلطة ببعض قطع من جلد باطن القدم وقليل من الدم الأسود، أستعيد بها أيام دراستي البعيدة.

كانت شجرة لوز الهند تطل من أعلى سور المدرسة فتذكّرني بجريد النخل الذي كُنت أستعمله مع أبناء الحارة وبعض الغرباء في إنزال لوز الهند منها. وأكاد ألمس تلك المرارة في حلقي بعد أن آكل الثمار الخضراء غير الناضجة. هذه الشجرة هي السلّم الذي كان، وأكاد أجزم بأنه ما زال إلى الآن، لمعظم الطلاب يستخدمونه في الهروب من المدرسة وقتَ (الفسحة الكبيرة)، أو بين الحصص. وهذه الشجرة هي أيضاً، التي تسببت في كسر ساقي اليمنى. كانت شجرة عادية، وفي بعض الأحيان أشعر بها شاهداً صامتاً على الحفائر بكل تموجاتها الساكنة.

المارة كثيرون. يعبرون إلى الحرم وإلى الدكاكين المنتشرة أعلى طلعة الحفائر. تشابهت عليّ وجوههم، برغم اختلافها، فلا أجد فرقاً مهماً بينها. الكل يتطلع إلى الفضاء المترب. يبحثون عن أشيائهم الضائعة، أو ينظرون إلى الحرم من دون أن يدرك معظمهم معناه. كانوا

أشكالاً مختلفة، فلماذا رأيتهم لحظتها شخصاً واحداً يتكرر بملل صامت وشديد.

كنت أتحاشى النظر إلى وجوه المارة أو التطلع إلى ظهورهم المحنية والمتربة أحياناً، إلى أن وصلت إلى الركن الشرقي لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب...

لم تكن مفاجَأةً لي ألاّ أجد حوش الشناقطة، فقد كنت شاهداً على إزالته. ومع ذلك فأنا ما زلت أصرّ على أن مكانه لا زال يسمى حوش الشناقطة...! ليس لإصراري هذا سبب، ولكنه يجعلني أنظر إلى الحوش كسحابة معلقة في الهواء فوق المكان نفسه؛ هذه السحابة ربما تمطر أناساً بخيالاتهم الخفيفة تتقاذفهم الرياح في كل مكان حولي، وربما تظل معلقة هناك بسكون كشاهد قبر كبير، بلا ملامح وبلا أموات.

توقفت في ركن الحوش وأخذت أتأمل ذلك المبنى الضخم الجميل، وداخلي يردد:

ـ ما شاء اللّه... تبارك اللّه.

تلفتُّ حولي فلم أجد ورشة الحدادة الخاصة بعم محسن؛ الحداد العملاق، بل وجدت أمامي (كافيتريا) صغيرة متسخة، أنظف ما فيها صفّ من الكراسي على الرصيف. جلست على أحدها وطلبت كوباً من الشاي. أشعلت سيجارة عابثاً بدخانها السابح في الهواء، مستعيداً نظرات ستي معتوقة القرملية الحادة. كانت كبيرة في السن لدرجة أرفض أن يكون أبي قد مارس الجنس مع عجوز مثلها. لم تكن فيها أي مسحة من الجمال في الوجه ولا في الأخلاق برغم أنها كانت تعاملني كابن لها. وهي أيضاً شيخة للزار، وأعتقد أن معظم الناس لا

تحاول أن تقترب منها، فجميعهم يهابون الاقتراب منها أو ربما هم يخافونها. سمعت مرّةً، عمدة الحفائر عباس البندوز يتحدث عنها كأنها ساحرة لها أعوان من الجن:

ـ معتوقة القرملية جنَّنَت حريم الحارة. كل أسبوع تسوي حفلة زار ألين جانا الدوَخ. . . بنت الكلب! حتى البنات الصغار ما سلموا من شرها. . .

ويأخذ نفَساً من الشيشة الجراك المركونة جوار المركاز الخشبي، ليتابع وقد انبسطت أساريره هازّاً رأسه المعتمر الكوفية البلدي والعمة الحلبية الصفراء.

ـ ألين ارتحنا من الزار الزفت هذا بعد المنع. أنا كنت أقول إن هذا كله كلام فاضي. لا يودي ولا يجيب. لكن إيش تسوي لعقول الحريم الناقصة. كأنها تسحرهم ما يرجعوا من عندها إلاَّ مجانين جنس. كأن الواحد ما كان يسوي شيء. واللّه ربنا ريحنا وقدرنا نشوف نفسنا شوية. . . !

وضع النادل كوب الشاي أمامي بيده المتسخة، فأخذت رشفة منه متناسياً ما رأيت.

عاد نادل الاستراحة إلى داخل محله متحسساً أنفه بخنصر يده، وناظراً إليَّ باستغراب.

للحديث مع حليمة الجبرتية إيحاء مبهم بالمتعة بالرغم من أن لون بشرتها الأسود اللامع يذكّرني بستي معتوقة القرملية. ومع أنها في أواخر عقدها السادس إلاَّ أنها تبدو أصغر من ذلك بكثير. فأسنانها ما تزال تلمع مع كل ابتسامة، وجسمها لم يكن مترهلاً تماماً، وردفاها يتدليان خلفها بضمور شبه واضح. كانت شفتاها مسودّتين بلا سبب.

تبدوان من الداخل محمرتين، ربما من أكل (القورو)، ومن الخارج شبه متفحمتين. تذكرني شفتاها بابنتها التي لم ترث عنها شيئاً سوى فمها. شفتها العليا تشبه رقم ثمانية موضوعاً في أعلى فمها. تتحدد لديها في النهار بعض الملامح لتبدو كأنها تتشكّل بصورة مختلفة عند بزوغ الشمس. فيختفي السواد اللامع ويختفي بياض أسنانها في بعض الأوقات خلف طيف من الاصفرار الخفيف. ومع تقدم الليل تعيد حليمة الجبرتية رسم صورتها التي تحبُ أن تكون عليها، فتبان امرأةً تملك الكثير من التفاصيل التي تُبرز بقوةٍ جمالَها المحيّر.

وكبشرتها اللامعة تنعكس الأنوار فوق شعرها الخشن عندما ينحسر غطاء الرأس عن طرفه، فيظهر الضوء منساباً فوق شعرها، شعرةً شعرة.

أتندَّر على شعرها الخشن في بعض الأحيان قائلاً:

ـ يقولون إنك تدهنين شعرك بالبامية؟

فتجيب وقد اتسعت عيناها بزعل مصطنع، وحاجباها معقودان دلالة الاستياء:

ـ من هم يا ابن الكلب. . . ؟

ـ الناس. . . !

ـ الناس. . . ولاّ أنت اللي تحب تكذب لسبب أو من دون سبب؟

ـ أنا كذاب. . . ؟

ـ أيوه كذاب وستين كذاب. . . بامية. . . بامية. . . بعدين أنا ما أحب البامية في فمي كيف أحطها على رأسي يا ابن الكلب؟. . . أنت تبغي تزعلني وبس؟

ـ لا أزعلك. . . ولا شيء. . . أنا قلت اللي سمعته!

ـ وهو هذا كلام ينقال. . .؟

لها جبهة عريضة، وكنتُ أحسُّ في كثير من الأوقات بأن هذه المرأة تقترب من الصلع. لم تكن لها طريقة واضحة في كلام، وإن كان تردُّدها واضحاً، تصحبه بألم عندما تتحدث عن تخلّف ابنتها. كنتُ أشعر بها تطلق آلامها من عقالها بشكل تنهدات أو نظرات كئيبة تنبثق من بين عينيها اللتين بالكاد كانت تنجح في إخفاء دمعهما.

طردت آخر نفَس من السيجارة دفعةً واحدة. ارتشفت ما تبقّى من الشاي في قعر الكوب، ونهضت تاركاً للنادل بقشيشَه الذي أجزم بأنه لا يستحقه. سرت بمحاذاة الرصيف المترب مبتعداً عن المدرسة، قاصداً منزل حليمة الجبرتية في طرف الحفائر الشرقي. أعمدة النور تجاهد الظلام وتنتصب واقفة تعبث بها نسمات الهواء التي تنقل صوت الإمام الجميل قارئاً سورة الفيل قبل صلاة العشاء من مسجد الحفائر القريب.

توقفت أمام باب البيت وضغطت الجرس مستمتعاً برنينه من دون أن أرفع إصبعي. تتملكني هذه الرغبة منذ كنت طفلاً، كلما سمعت رنين الجرس يتردد بين جدران البيت، وأجد نفسي متشبثاً بهذه الرغبة كلغز لا أدري كنهه، سرعان ما يتلاشى عندما يُفتح الباب. ولطالما سبّبت لي هذه الرغبة الكثير من عبارات التعنيف والعتاب، تقذف بها حليمة الجبرتية في وجهي كلّما دخلت دارها، متكلفاً الابتسام، فيما هي تشيح غاضبة بوجهها عني ولا تعود تلتفت إليّ.

لم تكن حليمة الجبرتية موجودة يومها حين ضغطت على زر الجرس. كانت ابنتها التي فتحت لي الباب.

بدت لحظتها كتمثال أسود منحوت أمامي؛ لا يشبه ما رأيته من

قبل في صور الكتب القديمة التي تحكي عن الأديان القديمة والآلهة المختلفة في كل دين. أخذتني طلّتها إلى أفريقيا السمراء وقبائلها التي لا تعرف إلاّ قوانينَ أملتها عليها آلهتُها القادمة من أزمان سحيقة. لون هذا التمثال أسود، وربما يكون هو اللون الحقيقي للمرأة الواقفة أمامي الآن، وربما هذا التمثال يجسدها. كانت منتصبة كطيف أتى من زمن بعيد. ملابسها من دون ملامح. نهداها بارزان كفجرين يضيئان لونها الأسمر. عندما تربّعت على الأرض بدت كمنحوتة رخامية، ترخي بجسدها الكستنائي، الأسمر، على كل ما حولها، وتعبث بأنفاسها الحارّة، كجسدها، به، وبي. رأيتها في جلستها، كمومياء فرعونية قديمة، تنسابُ أصابعُها بين الفخذين المغطيين بقطعة قماش، لا بدَّ من أنها اختارتها هي، بلونها... الخشبي.

لم أجرؤ على أن أتطلع بدايةً إلى عينيها الذابلتين. كانت كأنها تبحث عن اعتذار للذنوب التي ارتكبتها. وعندما تجرأت ونظرت إليها عرفت أنني أمام سواد غريب لا يعرف الظلمة، ولم يأتِ من الظلمة. ذكرني شحوب خديها بصورتي عندما كنت في الرابعة عشرة، كانوا يقولون إنني أنمو طولياً أسرع من النمو العرضي لذلك كدت أجزم بأن سنها لم يتجاوز العشرين. لم يكن شعرها المجعد يشكّل أي مشكلة لها، كانت معتنية به إلى حدّ جعلني شبهَ موقن من أنها فعلاً مغرمة بالتسريحة الفرعونية للشعر.

اعتقدت للحظة أنني أرى تمثالاً حقيقياً يجلس أمامي. فقد شاهدت نقوشاً أو ربما هي كتابات، موجودة على قاعدة التمثال، بلا معنى. كانت كتابات غير متجانسة ورسوماً غير واضحة، ولكنها في النهاية تضفي غموضاً أكثر على التمثال، فأهز رأسي من دون أن أفهم سبب هذا الغموض وسبب وجودي أنا أمامه...!

لم تكن بنت حليمة الجبرتية الجالسة أمامي بلهاء. كنت أعرف أنها تفهم الكثير، بل ولديها من الجمال ما يجعلني أتطلع باندهاش إليها، وإلى حكمة اللّه في خلقه.

كان رأسي يدور بسبب هذه المرأة المومياء الجالسة أمامي. كانت ذات جسم متناسق يغويني، ويُغويني أكثر ردفاها تتغنج بهما، أمامي، حتى أكاد أُجَن. اقتربت من جسمها الأسمر الدافئ، أتحسس نهديها النافرين.

ـ آه... ما أجمل هاتين الحلمتين...

جرفتني قبلتها إلى هذا الجسد الأسمر ليحرقني لهبه، فتغيب بعدها اللحظات عني ولا أعود أتمكن من فهم أو تفسير ما يحصل، إلى أن قذفتني الشهوة وهي في قمة ارتعاشها بين ثنايا الجسد الأملس، فتراجعت مُنهكَ القوى وأنفاسي تختلط بصوتي الهادر.

لم أستطع أن أجلس بعد أن ذهبت لإعداد بعض ما تريد أن تأكل، فتمددت ناظراً إلى السقف. كانت شبه مجنونة بجسدها. تتمايل كأنها ساحرة من غير أن تعرف.

مع إغلاقها البابَ، تذكرت أني لم أجد حليمة الجبرتية، أمها، منذ أن دخلت المنزل. وعندما سألتها مستوضحاً، أجابتني بأن أسأل أمها عندما ترجع...

كان جوابها مراوغاً. هل كانت تحاول أن تمارس خبثَها معي. لستُ أعتقد ذلك. تأمّلتُ عينيها. لم تكونا تُفصحان عن خبث. فقد أجابت من غير أن تلمع عيناها بسحر ذاك الدهاء الغامض.

اعتقدت عندها أن أمها ذهبت إلى جيرانها الجدد، أو ربما ذهبت إلى دكان الحاج علوان العجوز بائع الخضرة.

بعد أن خَرَجَتْ جلتُ بنظري في أنحاء الغرفة. تبدو لي نظيفة ومرتبة، لذلك لم أجد شيئاً لافتاً للنظر غير هذه الليانة التي أجلس عليها، فقد كانت جديدة القماش والقطن، شعرت بذلك من انتفاخها ومن رائحة القماش الجديد التي تفوح منه.

لم أهتم بالوقت. فهذه الليلة أظنّ أنها لن تنتهي، ومروحة السقف تبعث بعض النسمات المنتظمة، فاسترخيت سانداً رأسي إلى تكاية كانت على يميني، وعدت أنظر إلى السقف وهذه المروحة الزرقاء المتدلية تعمل بجد. كانت تترامى إلى سمعي أصوات غريبة، تختلط في الهواء وتبتعد لتعود تنبّه سمعي، للحظات، ثم تعاود التشتت.

مضى الوقت سريعاً. أظلمت السماء تماماً، فهدأت الحفائر وعادت عادةُ سراج الأعرج البلهاء تتحرك حولي. كنت أسمع وقع أقدام سراج الأعرج، بخطواته غير المنتظمة وجسمه المتمايل، إلى باب المسجد... يرفع يديه كأنه يدعو اللّه... ليبدأ في الصراخ ووجهه إلى الباب. كانت هذه عادته البلهاء أسمعها كل ليلة. والآن أسمعها قريباً جداً مني. بدأها منذ كنت صغيراً ولكني أحتاج إلى كثير من الصبر كي أصدق أنها ستقع قريباً؛ ولا أجد الآن القدرة على الجهر بوقوعها.

■ ■ ■

يبدو لي أن هناك أحداثاً ستقع، وربما لم تحدث من قبل، ونحاول عند انتهاء الأجواء المحيطة بها وبعد أن تضاء الأشياء بالقرب منها، أن نتأكد من حدوثها، حتى ولو كان ذلك في الخيال لنطمئن ونتصرف بعد ذلك على أنها وقعت بالفعل، جاهدين أن نصدّق كل أحداثها الغريبة. ربما هذا ما حدث عندما نهضت في منتصف الليل غير مصدق أنني نمت في بيت حليمة الجبرتية. نظرت حولي لأجد (تبسي)[١٢] الطعام موضوعةً بجواري، وضوءاً خافتاً يأتي من خلال الباب الموارب. لم أكن جائعاً، إلاّ أن وجود الطعام أمامي جعلني أتناول بعض اللقيمات علّي أطرد طعم المرارة التي في حلقي. شربت بعدها كوب الماء الموضوع عند طرف التبسي. انبسطت أساريري قليلاً وشعرت بالماء ينساب في جوفي حتى فوجئت بصوت غريب يصلني. كان يشبه همساً بطيئاً مغمغماً دفعني إلى الالتفات إلى ركن الغرفة. كنت لا أزال ممسكاً بكوب الماء فتوقفت عن شربه. كان جموداً مفاجئاً أربكني وعيناي تجولان في الغرفة بريبة. عاودت النظر إلى الركن لتتضح لي ملامح والدي جالساً. هذه أول مرة أجد أبي خارج البيت. ماذا يفعل هنا؟

(١٢) تبسي: صينية الطعام.

يبدو أنه يطاردني ويتعقب تصرفاتي. داهمني هذا الشعور ووتر أعصابي حتى كدتُ أهتاج بعدها. لم أستطع أن أصدق أنني مراقَب. عندما نظرت إليه اتضح شكله جالساً في الركن، فنزل على رأسي كمطرقة مستمرة في الطَّرْق. تراخيت وأنا أسمع كلماته بعمق. حدقت فيه مجدداً برغم ملامحه المعتمة، إلاّ أن الصوت الذي سمعته بكلماته الغير واضحة كان يشبه الهمس في أطراف الليل. لا تبدو كلماته واضحة كثيراً. كانت متقاطعة ومتداخلة. ملامحه أيضاً، كانت غير واضحة، ثمّ سرعان ما اتضح صوته. سمعته كأنه يتحدث مع أحدهم:

ـ . . . ومع صوت إغلاق الباب انهار جسمي على السرير الصدئ ونظرت إلى السقف محاولاً قراءته من غير أن أفهم شيئاً. أنا كنت أخافها. . .؟ لماذا تقول هذا. . .؟ كان هذا التساؤل بمثابة المطرقة التي تنهال على رأسي من غير أن أعرف مصدرها. أنت لا تفهم ماذا كنت؟. لقد كنت أقواهم. نعم أقواهم. كانوا يعرفون قوتي، لذلك لم يجرؤ على أن يتحداني أحد. لا. . . لا. . . لقد تحطمت. كانت دموعي تنهمر على خدي، كأني لا أعرف كيف أوقفها. كانت ستي عُشرى مرزوق هي التي أخبرتني بعدم قدرتي على الإنجاب. لها مكانة كبيرة في قلبي. فقد كانت مقربة جداً من معلمي الأسود عبد المقصود الهارون، إلاّ أنني عندما سمعتها بصوتها الخشن من أثر الجراك، تُنبئني بـ «أنت لن تنجب. . .!»، لم أعد أعرف هل كانت حينها تدرك ما تقول. . .؟ أم أنها نسيت أن تخلط الجراك ذلك اليوم. . .؟ فهذا الكلام لا أستطيع أن أصدقه. ربما كان هذا الكلام مختلطاً ببخور الزار؛ ذلك الزار الذي كانت شيخته. كانت أول مرة أراها في هذه الصورة. معها معتوقة القرملية، ساعدها الأيمن في الزار. كانت تدأب على أن تتعلّم الصنعة باجتهاد مستمر. رددت معتوقة عليّ ما قالته سابقاً

ستي عُشرى مرزوق «إنت ما حيجيك أولاد»، ورسمت على وجهها أغرب ابتسامة رأيتها حتى اليوم. أحاول أن أتناسى الكلمات وأحول تفكيري إلى شيء آخر. مزمار... التكية المصرية... حارة الباب... أي شيء غير كلام معتوقة الحاقد، لكن بلا فائدة. كل محاولات الهروب لم تكن تجدي بل تتمادى هواجسي إلى التأكد من قدرتي على الإنجاب. أنا لم أكن متأكداً من أنني لا أنجب، ولكن الذي يحيرني كيف تعرف جدتي عُشرى أنني لا أنجب...؟ عندما أسأل معتوقة القرملية تبتسم لي تلك الابتسامة الغريبة ثم تنظر إلى قدميّ، وتذهب بلا جواب ومن دون أن أحاول إيقافها لاستيضاحها، وسؤالها. فقط أرهف السمع إلى خطواتها تبتعد...

تململ قليلاً في جلسته ثم تابع بعدها:

ـ أنا لن أنسى أمك تلك الليلة. لقد كنت أشتهيها. نعم كنت أنظر إليها على أنها ما أريد. ظننتها أصبحتْ مثل الفريسة السهلة أمد يدي وأمسكها. لكنها في الحقيقة كانت الفخ الذي يقيدني. لا أدري هل كانت نظراتها هي القيد الذي ربط يدي وقدمي؟ أم رغبتي الجامحة هي التي صيّرتني فريسة سهلة السقوط؟ كانت متعتها تكمن في سحرها الذي لا أستطيع مقاومته. دارت الأزمنة وتقلّب الوقت، وما استطعت أن أصدق أنها من الممكن أن تحبل...! وحسب ما تقول ستي عُشرى مرزوق فأنا محروم من الخلَف. ممكن تكون غلطانة هذه المرة. ممكن... ليتني أصدق. «قطعاً هو ابن حرام». طوال أيام الحمل والوحم وطلباته وأنا أتألم منها. أين ذهبت قوتي؟ لم أستطع أن أواجهها. كلما اقتربت منها رمقتني بعينيها، فأنسى كل شيء. كان يهزني سحرها، فما أعود أقوى على المجابهة. كانت أقوى مني برغم ضعفها. كيف تمّ لها ما أرادت؟ أكاد أُجن. لم أكن أجدها أمامي

لحظة، إلاّ وتحرك الألم بداخلي. آلامي تعتصرني وهي تطلب الحليب في منتصف الليل، فألبّي، سمعاً وطاعةً، بينما الألم يثور داخلي، ولا أعودُ إلاّ منهكاً من البحث والألم. أسن السكين كل ليلة وأنا أحاول أن أرمّم كبريائي الذي انهار وتحطّم، وأمنّي نفسي المسحوقة بأنني سوف أقطع كل وريد وشريان لها، وأنني سوف أشرب من دمها. غير أنني ما كنت أقطع إلاّ أحلام عمري الذي كان ينقضي سريعاً. كنت أقف أمامها عارياً من ملابسي، عارياً من جلدي، عارياً من قدرتي على الكلام، عارياً من كل شيء. وهي ترسل نظراتها فتقيدني... تشدني إلى الأرض، ومتى شاءت سحبتني إليها، وساعة تريد... فأحبو إليها كطفل... ألحس خدها... ألثم عنقها... ألثم نهديها... أحاول أن أغرس أنفي في عنقها... أشم رائحتها... أشمها بقوة عسى أن أحترق بها... لم أكن أدري هل أنا أحبها، أم أكرهها...؟ أعبدها أم أكفر بها...؟ كانت تمسك بي وأحس كأني في الماء... أغرق... وهي تتركني... لا أعرف العوم... أبتلع الماء... أغرق... أغرق... أرى يدها... تمسك بيدي... وأتنفس الماء الذي في جوفي... تتركني... أنساب داخل الماء مرة أخرى وأتماهى به كقطرة منه... أبحث عن يدها ولا أجدها... أغوص في الماء... لا أعرف العوم... ثم... ثم... كانت كلي الذي أبحث عنه أمامها... إلى أن أتيت إلى البيت ذلك اليوم. لم أطرق الباب، فقد كنت لاهثاً ولا أعي ما أفعل حتى رأيت النساء حاسرات الرؤوس في وسط المنزل يبكين ويصرخن. زاد صراخهن عندما رأينني أدخل عليهن من غير أن أستأذن أو أطرق الباب. لم أتراجع بل دخلت مباشرة غير عابئ بصيحاتهن ولا باحتجاجاتهم. كنت (أهشهن) بعصاي كالغنم من غير أن أكترث بما هن عليه من فوضى. فتحت باب غرفتها بقوة ونظرت

إليها. تناهت إلى سمعي من الخارج أصوات النسوة، فلم أميّز سوى الصوت القوي لامرأة صاحب الدكان مكية الداية. كانت بالقرب مني عندما قالت «مبروك... جابت ولد... وماتت!». صرخت مستغرباً «... إيش...؟». أجابت وكأنها تعرف ما أريد أن أسمع «ماتت...». كانت تلوك الكلام بنظرات خبيثة. كأن الأمر لا يعنيها. إنما هي هنا للتشفي فقط. كانت تنظر إليّ من تحت اللثام بعينين فاحصتين. لم تكن تريد شيئاً سوى أن تنظر هازئةً إلى عيني. بدت كأنها تود أن ترى ألماً ومعنى لوجود الموت فيهما. لا أعرف من أين أتتها هذه الرغبة، ولكنها كانت مسيطرة عليها. كانت على استعداد للتنازل عن كثير من سنيّ عمرها لترى هزيمتي وموتي باديين في عينيّ. ولكني لم أعطها هذه الفرصة. دخلت وأقفلت الباب وأسندت ظهري إليه من الداخل. أصبحت بالنسبة إلي ماضياً لا يعنيني. نظرت إلى السرير وإلى الجسد الملقى عليه. تضاربت الأفكار والهواجس في رأسي. اقتربت منها وحاولت أن أصرخ، أن أبعثر الهواء حولي، فما أستطعت. أردت أن أشعر بها وأنا أنظر إليها، غارقةً في تلك الغيبوبة الأبدية التي أخذتها مني، بسخرية وعبث لئيمين. كانت الشمس تنزل ناراً مشتعلة على رأسي. سمعتُ طرقاً على الباب وأصوات النسوة يصحنَ... «افتح الباب». صوت حاد سمعته بين الأصوات «إنها ميتة». صوت آخر مرتجف ولم يكتمل «الولد بصحة وعافية». كان صوت معتوقة القرملية بضخامته المبحوحة. لم أعرهن أي اهتمام. كنت كالمحموم يهذي بينه وبين نفسه ولا يعرف إلى من يوجه كلماته، ولا من يسمع هذيانه ولا سبب هذا الهذيان. تراكمت الهواجس في داخلي تنهش في رأسي كأنها قدَر لا بدّ من مواجهته. لقد ماتت من غير أن أعمل أي شيء. سوف تطاردني لعنتها أينما كنت. لم أكن أقدر

على عمل شيء وهي حية. كنت أمامها لا أعرف نفسي، واليوم تبدلت الأحوال. لم يعد أمامي ما يمنعني من أن أنال منها، وهي ميتة، جثة لا تستطيع أن تتحرك. لقد أرعبتني عندما كانت لها السطوة على كل شيء في داخلي. ولكن اليوم كل ما في داخلي قد تهدم. أصبحت أشيائي حبات من تراب الشارع الذي أنا قادم منه، وأسير عليه. لم يعد هناك شيء أخاف عليه. لقد تحطمت كل أزمنتي وأصبحت لحظة مكرورة في هذا الزمن الذي أراه متوقفاً الآن. تقدمتُ من سريرها. هل هي حقاً ميتة؟ لا أصدّق موتَها. ربما أن القدر يهزأ بي. ربما هي تهزأ بي، فتحاول أن توهمني موتَها. ولكنها جامدة، لا تتحرك. صحيح إذاً، أنها ماتت. سألتها «من قال لكِ أن تموتي. . .؟» وعاتبتها لماذا استسلمت للموت. لم تجب. لقد ماتت حقاً. ماتت من غير أن تخرجني من هذه الحيرة. لقد عذبتني في حياتها وها هي تعذبني الآن في مماتها. نظرات الناس سوف تقتلني. لن أستطيع أن أتماسك أمام أي منهم. سوف يسخرون مني كما فعلوا عندما تزوجتها. كانت في متناول أيديهم فما الذي جعلهم ينظرون إليها عندما أصبحت في يدي. لقد امتصصتُ دماءهم الفاسدة طوال عمري. خلصتهم من أمراضهم. فماذا فعلوا بي. . .؟ لقد جمعوا كل تلك الدماء وسقوني إياها دفعة واحدة. والآن أنا أكثرهم مرضاً، وأكثرهم ذنوباً، وأكثرهم رغبة في الموت، وفي إحراقهم.

أخذ نفساً عميقاً ثم واصل كلماته المرتبكة بقليل من الهدوء، وكأنه يحاول تغيير الموضوع:

ـ الحجامة بالنسبة إليّ هي الشيء الذي أمتص به كل دمي الفاسد. . . ! كل أشيائي القذرة. لقد كانت أمك ذنوبي التي أراها تتحرك أمامي كثعبان يتلاعب على الأرض فيزحف عليها. لم أكن أنا

ذلك الرجل الذي يستطيع أن يقول لها من أنت. . .؟ كنتُ أنظر إليها من غير أن ألمس منها شيئاً. فقط أمتص الدماء النجسة التي أروي بها ظمئي اللعين.

ساد صمت رهيب زاد من ظلام الغرفة ووحشتها وأرخى بظلاله على الحفائر، فبدت كلها صامتة.

لم أستطع الاقتراب من أبي، وظللتُ واجماً أحملق فيه إلى أن اختفى من أمامي. لم أبحث عنه بل خرجت إلى الشارع. هززت رأسي ونظرت حولي ببلاهة ثم اتجهت إلى بيت والدي لآخذ أدوات الحفر، وصعدت إلى بيت سراج الأعرج في أعلى الجبل.

دفعت الباب ودخلت. ألقيت (بالكريك) و (الفاروع) على الأرض بقوة ليحدث ارتطامهما بالأرض صوتاً حاداً جعلني أنتفض، وأفتح عيني على اتساعيهما.

رأيتُ نفسي جالساً ومعروقاً داخل غرفة سراج الأعرج الوحيدة. سمعتُ صوتاً حاداً لم أستطع أن أحدد مصدره. كان ثمة هدوء مقلق قبل أن يأتيني ذلك الصوت الحاد، وازدت قلقاً بعد أن همد فجأة. تصلبت فوق السرير. لم أكن قد شعرت بعد، بأنني دخلت الغرفة، ولكنني متأكد من أنني أنا من أحدَثَ ذلك الصوت عندما ألقيت بعدة الحفر. نهضت بسرعة وخرجت من الغرفة باحثاً عن عدة الحفر. ولكن المفاجأة كانت أنني لم أجد شيئاً. تسمرت مكاني وأخذت أتطلع حولي. أين ذهبت العدة. لقد كانت هنا؟ هل جننت؟ آه. . . ربما كنت نائماً وصحوت؟ أو ربما كنت نائماً وأحلم؟ عدت إلى الغرفة وارتميت على السرير متنهداً. عدم فهمي جعلني أبتسم. شرُّ الأمور ما يُضحك. لا بدَّ من أنني جُننت.

لم أستطع تحمل تهكماتي على نفسي، فخرجت من الغرفة محاولاً تذكر ما حدث.

نظرت إلى الباب بتساؤل لأجده مقفلاً بصمت. كان صمته عنيفاً أمام تساؤلي.

ـ يجب أن تتمالك نفسك.

أعدت هذه العبارة للمرّة الألف علّي أستطيع أن أجد تفسيراً معقولاً لما جرى. غسلت وجهي بماء الزير وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأنني كنت نائماً وأحلم فقط. كنتُ أتمنى أن يكون مجرّد حلم.

■ ■ ■

التفتُّ إلى الجدار وأنا أكاد أصرخ من الفزع مستعيداً كلمات والدي. التساؤلات ترن في أذني. كيف تمّ هذا؟ لقد كان والدي يتحدث ولم أشعر بالحلم. كان متماسكاً لدرجة الحقيقة. ثم إنه لم يُنه كلامه. بدأ رأسي يؤلمني. صداع حاد لم أتحمله، فخرجتُ من بيت سراج الأعرج متجهاً إلى بيت والدي علّي أرتاح، وعلّي أجد عدة الحفر هناك؛ عند الباب من الداخل، أو في أي مكان آخر هناك. كنتُ أحتاجُ إلى ما يبدّد هذا الغموض الذي يتراءى لي. كنتُ أريد أن أعرف الحقيقة.

بدأت أتفهمهم وأقبل حججهم وأعذارهم عندما لا يصدقون أنني كنت أتكلم مع والدي الميت. فأنا الآن لم أعد أصدق ذلك. كان ظلاماً داكناً عندما وصلت إلى منزل والدي وفتحت الباب. صدمتني رائحة الجراك الطازجة الممزوجة بصوت كركرة ماء الشيشة المنطلق من المجلس في طرف الدهليز. دخلت الدهليز وأقفلت الباب خلفي. مشيت حتى وصلت باب المجلس. أحسست وكأن والدي موجود، حتى كأنني أتحسس أنفاسه. نظر إليّ هامساً وكأنه يكمل حديثاً بدأه منذ قليل:

ـ عندما كنت في مثل سنك لم أجد أبي. وجدت نفسي وحيداً في الحفائر. كان الغبار فيها عالقاً في الهواء، وكنت أعمل في الحجامة طوال النهار.

ـ . . . .

ـ . . . منذ أول يوم جاءت فيه، عرفت أن كل ذنوبي قد أتت معها. كل ما فعلته ببنات الحجيج قد تقدم مني بوصولها. لم أنم معها تلك الليلة. لقد تحول فرحي إلى حزن تذكرت معه معلّمي الأسود، وتذكرت أبخرته العجيبة التي كانت تملأ أنفي فلا أستطيع أن أتحرك. لم أنظر إليها. ذهبتُ إلى السطح وأنا أكاد أختنق بأنفاسها المزكومة ونظراتها القاسية. تعذبني بجمالها. ويغويني شعرها الطويل وأشتهيه، ورائحة الشبق تفوح من إبطها الناعم المعطر. إنها ملعونة من نفسها، وملعونة مني، من كل قطرة دم فاسد امتصصتها من ظهور المرضى. كان الهواء في السطح قد هدأ وتلاشى. بحثت عنه كثيراً ولم أجده. لم يكن أمامي غير النوم مع الفئران والوزغ وبين العناكب. لم أكن أشعر بوحشة. كنت أتقيأ دماً أعاقب نفسي بأن أتوسّده واضعاً رأسي عليه. . . !

لم أعرف إذا كان أبي يراني أم لا . . .؟ ولكنني متأكد من أن عينيه شاخصتان إليّ. لم أتكلم، فأردف:

ـ لقد كنتَ موجوداً قبل أن أعرف أمك. كُنتَ موجوداً في بنات الحجاج (الأندنوسيين) وبنات (التكارنه) وبنات الهنود. كنتَ موجوداً في كل بنات العالم. فمن أنتَ. . .؟

كان سؤاله ينتظر جواباً، وأنتظر أنا أن أعرف سبباً لهذه النظرات الجامدة:

ـ أنا لا أفهم ما تقول. . . !

ـ لا يهم أن تفهم. كل الحفائر تعرف من أنت. . .

ـ كل الحفائر. . . ؟ كل الحفائر تعرف أنني ابنك محمود. . . محمود مسعود تكنيري.

ـ روح. . . اسأل. . . !

ـ أسأل عن إيش. . . ؟

ـ . . .

عاد إلى صمته الرهيب الذي لا يطاق. خفت الاقتراب منه فأقفلت باب المجلس وخرجت. إذاً لم يكن حلماً، فأبي كان يتكلم وكنت معه في أول الليل. لعينة هذه الليلة التي لا تريد أن تنتهي. تذكرت (الكريك والفاروع). يجب أن أجدهما. صعدت إلى السطح أبحث عنهما إلى أن عثرت عليهما وسط أشياء مهملة كثيراً مبعثرة كيفما اتفق. ما حيرني أنهما لم يُمَسا من سنين فغبارهما الصدئ كما هو. عاودني الشك في ما إذا كنت في حلم أم حقيقة. فإذا كنت أحلم فإنني حتماً لم أبتعد كثيراً عن الجنون. هززت رأسي وسحبت الكريك والفاروع. اتجهت مباشرة إلى بيت سراج الأعرج متناسياً أنني سرت على الطريق نفسه قبل ساعات.

عندما وصلت ونظرت تحتي وجدت الحفائر تلمع كالسماء التي فوقي. بيوتها المتربة تكاد تتماهى مع الجبل المتهادية فوقه، والظلام يعانق المصابيح الصغيرة كأنه يحاول إطفاءها. للحظة بدوتُ كأنني أبحث داخل الظلام عن غيلان الليل وجنياته القبيحات. لا زلت أحاول أن أفهم ما حدث لي الليلة، خصوصاً أنني عشت هذه اللحظات الرهيبة من قبل عندما زرت سراج الأعرج.

سراج هذا يوقد في ذهني الكثير من الأشياء بلا معنى. كنت قد ذهبت إليه في منزله القذر وأنا لا أعرف لماذا أشعر بأنه يعرف شيئاً ربما يساعدني على الفهم.

استقبلني بابتسامته البلهاء الخبيثة عندما أخذت في مناداته:

- سراج.

- نعم يا عم.

- أنت تعرف أبويا...؟

- يا عم أنا جيعان.

- يا سراج هوا دا وقت أكل.

- يا عم أنا جيعان.

- طيب... أجلب لك طعاماً... لكن قل لي إنت تعرف أبويا؟

- يا عم أنا جيعان.

- يا سيدي قلت لك أجلب لك أكل. بس بعد ما نتكلم شوية.

- أنت ما تكدب عليّ...؟

- هو أنا كدبت عليك قبل كدة...؟

- يا عم أنا ما أعرف غير أني جيعان...!

- يا سيدي قلت لك أجلب لك أكل بعدما نتكلم شوية.

- نتكلم عن مين يا عم...؟

- نتكلم عن أبويا.

- إيشبه أبوك يا عم... مريض...؟

- يا سراج أنت تلعب معايا...؟

ـ أنت اللي تقول أتكلم.

ـ طيب... أنت تعرف أبويا؟

ـ مين ما يعرف أبوك...؟

ـ طيب يا سيدي... إيش تعرف أنت عنه؟

ـ أعرف أنه أبوك.

ـ أقو لك لا تتبهلل يا سراج وخليك معايا شوية.

ـ أنا معاك... هو أنا رحت مكان. دا أنا قاعد في بيتي.

وبعد أن نفد صبري، صرختُ في وجهه:

ـ يا سراج أنا أسألك...إيش كان أبويا يسوي قبل ما يتزوج...؟

ـ أنا... ما أعرف شي. أسأل عم قدري.

ـ عم قدري الفوال؟

ـ أيوه... عم قدري الفوال... دا كان من أصحاب أبوك قبل تولد.

ـ عجيب.

ـ عجيب... ليش...؟ عجيب... عجيب... هو أنا أعرف أكتر منك؟

ـ لا... يا شيخ... لكن ما خطر لي أروح لعم قدري الفوال.

ـ يا عمي...

ـ ...

ـ لكن لا تنسَ، ترى عم قدري الفوال يحب الفلوس أكتر من عيونه.

ـ أعرف هادي . . . ما جبت شي جديد .

ـ ها تجيب لي أكل . . . يا عم أنا جيعان .

ـ طيب . . . طيب . . . أجيب لك أكل .

ـ أروح معاك .

لم ترقني فكرة جلب الطعام وهو معي فنظرت إليه مرة أخرى ونقدته خمسة ريالات:

ـ أقول لك . . . خد، هادي خمسة ريال. روح وكل اللي يعجبك .

خرجت ولم ألتفت إليه بعد ذلك .

لم يؤذن مؤذّن الفجر عندما فتحت الباب ودخلت بيت سراج الأعرج . كان السكون قد لف الحفائر من كل الجهات. وقع قدميّ يجرح صمت الليل عندما تصطدمان بحجر أو بعلبة فارغة. كنت أتكلم مع نفسي بأصوات مبهمة لا أفهم منها شيئاً. دخلت البيت وقد تصبب وجهي عرقاً مسحته بطرف كمي. تقاذفتني غرفة البيت بجثتها البلهاء الراقدة في طرفها، وجدرانه الكئيبة. رميت عدة الحفر في ركن الحوض وأقفلت الباب. ساورني خوف من الحلم فاتجهت مباشرة إلى جوار الزير لأحدد مكان الحفر .

بدأت الحفر بجوار الزير في المكان الذي شعرت بأنه من الممكن أن أحفر قبراً. كان الحوش جزءاً من جبل صلب ومتشقق من العطش . أشعر بأنني لن أستطيع دق مسمار واحد، فكيف لي أن أحفر قبراً . ولكن جوار الزير اكتشفت أرضاً رطبة وكمية من التراب كبيرة. غرست (الفاروع) في الأرض فانغرس بيسر مقلباً التراب وبدأت الحفر . حاولت طوال الوقت ألاّ أتذكر أحداً إلاّ عم قدري الفوال. لكنه لا يبدو

أنه يفهم أمام كرشه المنتفخ ذاك. كان صباحاً رتيباً ذلك الذي قصدت فيه عم قدري الفوال متمنياً أن أجد فرصة لأتحدث معه. كان تزاحم الزبائن على جرة الفول يجعلني مرتبكاً. لم أجد عم قدري، بل وجدت العامل عنده، يجلس خلف جرة الفول يحاول جاهداً أن يسرع في تلبية طلبات الزبائن. تطلعت حولي إلى أن رأيت عم قدري منزوياً في الطرف الآخر من الشارع، جالساً على كرسي وممسكاً بليّ (التعميرة)[١٣]، والدخان يتصاعد من فمه بتلذذ واضح. عندما اقتربت منه لم يتحرك، بل ابتسم وأشار نحو الكرسي الآخر إلى جواره وكأنه ممسك بنشوة لا يريد الحركة أن تُذهب بها. ولكنه، على ما يبدو، اضطر إلى الكلام قليلاً رادّاً على عبارات التحية التي أطلقتها. لم يتكلم مباشرة. كنت أناوشه وأجادله إلى أن ابتسم وقال:

ـ ما كانت بنت النجار حلوة كتير. لكنها كانت تسحر الحريم لمن يشوفوها. وكل وحدة منهم تتغنى بجمالها. وحدة تصف خُشمها، والثانية فمها، والثالثة خديها، والرابعة... والخامسة... واتنكت الخطاب عليها من كل مكان. وكل الحريم يزور مرت النجار عشان توافق على خطبتها لولدها.

ـ وبعدين؟

ـ ولا قبلين. كانت البنت حلوة ودلوعة. ما خلت حرمة في الحفائر إلاَّ وأخذت منها هدية أحلى من التانية.

ـ وكيف دخل أبويا في الموضوع...؟

ـ ماني متزكر بالظبط كيف انتهى موضوعها الين ما وصلت بيتكم،

---

(١٣) التعميرة: اسم آخر للشيشة يُطلّق عليها في مكة.

لأني سمعت فجأة إنها حتتزف لمسعود تكنيري اللي هو أبوك. كان شي عجيب تكلم الناس عنه، وكتر الكلام فترة طويلة اللين ما ماتت أمك وهي بتنفسك ليلة عيد رمضان.

- ...

نهض عم قدري مسرعاً إلى المحل ليساعد عامله.

أفقت على صوت ارتطام (الفاروع) بصخرة ولمعان شرارة صغيرة. كانت أنفاسي تلهث وأنا أرفع ظهري المبتل بالعرق. كنت قد حفرت ما يقارب عرض الكف عندما شعرت بأن ما حفرته ليس إلاً قشرة من الغبار تكومت بجوار الزير المستند إلى جدار الغرفة. تقوقعت بالقرب من جدار الغرفة يائساً وأصوات من حولي تتردد في أذني كأنني في مناحة. أمضيت وقتاً قبل أن أنهض بتكاسل، فدخلت الغرفة راكلاً جثة سراج الأعرج المتعفنة، واستلقيت على السرير منهكاً ومقهوراً من التعب والهم.

■ ■ ■

كنت أنظر إلى الجدار بقرف من تجهمه الباهت فأدير وجهي إلى الجهة الأخرى، حيث تتمدد جثة سراج الأعرج، فأبعد نظري وأتطلع في الهواء بحيرة. أشعر وكأنني قلت كلاماً يتطاير في الهواء ولا معنى له، كفقاعات صابون تتناثر من دون هدف. الحكايات لا تترابط في ما بينها وكأنها مشتتة. عندما تحسست وجهي شعرت بندوب كثيرة وبثور متفرقة ليس لها سبب. بدت وكأنها تتفجر من وجهي. لحيتي صارت كثّة، ولا رغبة لي في حلقها.

كنت قد اعتدت على هذا الضوء الخافت وهذه الرائحة الكريهة التي تنتشر في الغرفة. ألم رأسي يشتد ودقات المطارق تواصل غرس المسامير فيه، فأحس بي مصلوباً على الحائط الذي أستند إليه، والخيالات تتقافز أمامي لتزيد من حيرتي. كنت على وشك النوم عندما تذكرت العبد.

قفزت الصورة أمامي وكأنها تتكرر كل يوم في الوقت نفسه، بلا ملل. لقد كان العبد سريعاً في هروبه. لا، سأبدأ منذ أن دخل الخيمة في أطراف مكة. كان جائعاً فأطعموه وسقوه. لم يعرفوا حينها أنه لص ينهب ما تصل إليه يده ويعود به إلى سيده. ناموا بعد تلك الوجبة

الدسمة. حاول أن يسرق شاة فلم تطعه يداه. كانت تلك خيمة لساحر وقد قيّد فيها كل شيء بعمود الخيمة. عاد العبد إلى نومه وكأنه نسي الشاة. لا أتذكر بقية القصة ولكنني سمعت أن العبد قُتل بعد ذلك.

كانت نظراتي تخترق الجدار. لحظتها، تذكرت كيف أن حسن الصفيري كان يحدّق فيّ وكأنه يراني لأول مرة عندما مررت ذات يوم بجواره من دون أن أنتبه إلى وجوده، فصاح بي مستفسراً:

ـ فين يا محمود كل هذه الغيبة... كأنك لا تعرف أحداً... ولا اشتغلت في يوم من الأيام مع أحد.

واللّه يا عم حسن هذه الدنيا مشاغل.

ـ كلنا عارفين الدنيا... لكن لازم نشوفك في الشهر مرة على الأقل.

ـ معاك حق، أنا مقصر، لكن أنت أبو التكميل.

ـ واللّه واتعلمت الكلام يا أستاذ.

ـ منك اتعلمت كل شيء...!

ـ كمان...

قالها وقد اتسعت عيناه ثم ابتسم قليلاً فبانت أسنانه المصفرة، مربتاً على كتفي دافعاً بي إلى داخل دهليز منزله الكبير متمتماً:

ـ تعال... تفضل واجلس. رأس الشيشة جيد... إحكيلي إيش أحوالك؟

دخل وحاول أن يجلس على المركاز الداخلي من غير أن يتوقع مني أن أرفض الدخول. فقد كنت أنقاد معه باستسلام يحيرني. بعد أن تنهدت أجبته ساهماً:

ـ أحوالي زي ما هي: المدرسة والقهوة والبيت.

جلست على طرف المركاز وتناقلنا أطراف الحديث في أمور كثيرة. تغيّر رأس الشيشة الجراك مرّات كثيرة لم أحصها، والدخان يعبق في الدهليز عاقداً بعض السحب المختلطة بالنظرات، إلى أن أذّن المغرب وافترقنا للصلاة.

هززتُ رأسي وأعدت النظر إلى جرحي القديم الذي يذكرني (بمدوان)[١٤] العلب الفارغة الحاد الطرف. لقد كنت من أمهر مَن يلعبون (بالمدوان) في الحفائر. عندما كنت أُمسك المدوان بطرف أصابعي الثلاثة وأرفعه في الهواء قليلاً وأراه وقد اجتمعت ألوانه فبدا أبيض معلقاً في الهواء، تعتريني فرحة ترفعني إليه فيعود على راحتي مدغدغاً بطن كفي فآخذ في تحريك يدي مستمتعاً بدورانه الرائع. أتطلع في العيون التي أمامي وأعود إليه كفارس مطمئن إلى كسب السباق. أستمر مزهوّاً إلى أن أشعر بأنني يجب أن أكفيه. تميل يدي إلى الأرض الترابية الممهدة وأقلبه بتمكن ليرتفع طرفه الحاد أمامي بزهو أراه في عيونهم المترقبة.

الرهبة التي تفجر في داخلي هذه الأصوات تذكرني بذلك الزمن البعيد الذي أقترب من أيامه وأهتز لكل ما يدور حول القالب المتمسك بالنشوة. أشعر بأنني أقترب من أشياء أرتعب منها كأنني أوشك على أن أمسك بكل الآمال والقسوة بيد تهزها الريح وأقترب بها من تمثال متحرك.

تختلط الأنغام بأنفاس الدخان وتتبخر الأصوات مع نشوة الكلمات

---

(١٤) مدوان العلب الفارغة: قمع حاد الطرف يُصنع من التنك في الحفائر، وربما في الحفائر فقط.

فأحتوي النوم الجميل بالأحلام المتراقصة أمامي، وأترنح مع أنغامها المتمايلة اللامعة والمنتشية.

أنتهي بنهاية إزعاجها لي. . .!

أعماق سحيقة أستجلب منها الأحاسيس وأفجر بها عينيّ، فتنطلق مرتفعة مع سحائب الدخان المنطلق من بين شفتي المتيبستين بلا كلمات. التعب من الأشواق يبعدني عن الانسجام، والتراقص حول ناظري يجعلني أتطلع إلى براءة الخطيئة بين تلك العيون المرسومة والابتسامات الكاذبة. وعندما أدنو منها (تلك الحقيقة) أكتشف أنها أنا.

أنا وحيد في هذا الواقع، وما عدا ذلك فأضواء لامعة وقوية تتلاشى لحظة انطلاقها من الواقع وتذهب بعيداً. . . بعيداً جداً. . . ولا يراها أحد.

لم أعرهم أي اهتمام. لقد كنت أرى البنت ولا أنظر إليها بالرغم من تلك الرغبة التي في داخلي. كنت أنظر إليها من طرف عيني الخفي وأنا أكاد ألتهمها بعيني. لقد تعودت على هذا الوضع منذ أن تفجرت وانطلقت تلك الحيوانات المنوية من عضوي. . . سنتين. . . ثلاث سنوات. . . لم أعد أذكر، ولكنها أيام كثيرة مرت وأنا أرى البنات والنساء أمامي من غير أن ألمسهن. كُنَّ يرتسمنَ في خيالي فأتقلب بين أحضانهن وأداعب نهودهن بشهوة، إلى أن قالت لي تلك الشيطانة السوداء:

ـ كأنك أغى من الأغوات[١٥] ما عندك شيء؟!

ـ . . .

---

(١٥) الأغوات: رجال مخصيّون يهبهم أهلهم لتنظيف الحرم وخدمة المصلين فيه.

لم أجبها. . . لقد انعقد لساني. . . كلماتها اصطدمت بسمعي ففقدت التركيز في كل شيء حتى فيها. . . كان استهجاني لكلماتها لا نهاية له. يبدأ ليعود ويعود من جديد. فمن هذه التي تقول لي مثل هذا الكلام. . . ؟

تفرست في وجهها الجامد وأنا أكاد أُجن من الحنق. هي لم تعرفني بعد. لم تعرف ما أختزن من الطاقة في داخلي، وذلك الطوفان الذي أتقلب فوقه. تناسيت كلماتها وسددت إليها صفعة سمعها أبي وهو في غرفة الحجامة، فنظر من النافذة وهربت أنا إلى حوش الشناقطة من دون أن ألتفت إلى دموعها ولا إلى كلمات أبي الذي كان يحاول أن يخفي ابتسامته من خلف حديد النافذة.

عدت إليها بلا سبب. نظرت في عينيها كأنني أعتذر. دهشت عندما قبلت الاعتذار. وعرفتها عن قرب. كانت بالفعل شيطانة سوداء. كانت ثائرة على كل شيء، ناراً تحرق الشهوات المكبوتة تحت ملابسها. كانت تعلمني كيف أكون عارياً من دون أن أشعر. لقد أفقدتني جحيمي اليومي. غيّرت تلك النظرات في عيني إلى رغبات أنقاد إليها مفتوناً بذلك الجسد اللامع. كانت ساحرة. . . حولت ببخورها وعبق الشهوة المنبعث من صدرها، أحلامي كلّها إلى واقع أمارسه، وأتلذذ به، ثم أنزوي بعيداً في ركن البيت وأنام على الأرض. وبعدها بدأت السلسلة الطويلة من النساء السمراوات المتماهيات بسواد الليل الدامس.

■ ■ ■

لم أشعر بنفسي وأنا على السرير نائماً حتى أفقت. يبدو أنني نمت طوال النهار في هذه الغرفة العفنة. تمكن مني التعب والجوع. كان الظلام قد بدأ. شعرت وكأنني خفاش يوقظه الليل. ففي ليالي الحفائر يحلك الظلام، ويقل المارة، وتتقلص البيوت ملتصقة أكثر فأكثر بالجبل المستندة إليه، وهو يحنو عليها كأم تدفئ أطفالها بقلبها المتعب. خرجت من بيت سراج الأعرج متعكر الذهن وصخور الصمت جاثمة على أذني. خطواتي أجبرتني على أن أحكم لف الشماغ حول رأسي. سرت إلى أن قادتني قدماي إلى بيت عم آدم المفلوت. عم آدم هذا فعلاً مفلوت (متفلّت) من جميع الاعتقادات الطبيعية المتعارف عليها. لقد كان منضبطاً في الاختلاف وكأنه يهوى التفرد. كنت أستطيع أن أنتشي وأستمتع بجلساته الجميلة والغريبة. يهوى الاختلاف حتى مع أصدقائه القلائل. كان وجهه دائماً يحمل غيوم الصيف الهاربة فلا تراه في أغلب الأوقات إلاّ ساهماً وكأنه يحاول أن يتذكر شيئاً سهلاً. عندما نظرت إلى الباب توقفتُ أمامه أستجمع أنفاسي، ثم طرقته طرقات عدة. انتظرت قليلاً إلى أن سمعت وقع أقدام تقترب من الداخل ليرتفع صوت عم آدم:

- مين؟

- أنا يا عم آدم.

- مين أنت؟

- افتح يا عم آدم، كل مرة أقولك أنني محمود.

- . . .

فتح الباب وظهر آدم المفلوت بجسمه الأسود المتجعد.

- أهلاً محمود. . . ابن حلال. . . لسع ما بدينا.

- إيش. . . ؟ هو الموعد الليلة؟

- شكلك نسيت يا أستاز؟

- والله الإنسان صار من غير عقل.

- ادخل وبعدين نركّب لك عقل. . . ولا يهمك. . . !

دخلت الدهليز الطويل المعتم وسرت إلى نهايته، فتح الباب وانبهرت بالنور بعض الوقت لأتبين بعدها محتويات الغرفة. صُدمت بالأبخرة الكثيفة تلفُّ وجهي. كنت لا أتبين بوضوح وجوههم السوداء الكالحة وأسنانهم اللامعة كالأقمار البيضاء. ومن الوسط أو من الطرف لم أستطع أن أميّز المصدر الذي انطلقت منه تلك الصرخة العالية.

- حبيييي.

انتفض جسمي كله وأعلن شعر جسمي كله حالة استنفار، فوقف، حتى شعرت وكأن شعر حواجبي يقف أيضاً. كانت الطبول مصفوفة وهناك في الركن شخصان جالسان لا أعرفهما وقد تحلق الباقون بمحاذاة الجدران الأربعة.

جميعهم سود البشرة، حتى أنني تحرجت من وجودي وسطهم

بلوني الأبيض الباهت. كنت أعرف كل الوجوه تقريباً فصافحتم واحداً واحد، مبتدئاً من نوح راقوب ومنتهياً بهارون آدم المفلوت الذي قام وأحضر ذلك الشراب الحليبي المر. تجرعته على مضض في البداية. تقيأت بعد أول مرة شربته وسألت عم آدم عنه:

ـ هل هذا شراب مكاوي يا عم آدم؟.

أجاب (بعد أن لمعت أسنانه البيضاء) مبتسماً:

ـ أعوذ باللّٰه. . . خمر في بيتي؟

ـ طيب إيش هادا العلقم؟

ـ حليب غنم فيه بعض الأعشاب تشيل غبش الجسم وترميه في الهواء بسهولة من غير ما تحس.

ـ وما اسم هادا الحليب يا عم آدم؟

ـ كلدم داهون درنن.

ـ إيش هادا. . . ؟. . . كل دا اسم. . . ؟

ـ أعرف أنك مقفل اليوم. . . لكن ولا يهمك. . . هيا تعالَ واجلس جنبي.

أول رشفة ازدردتها بسرعة. معدتي يجب أن تكون خاوية من أي شيء فتنتشر المرارة في كل جسمي ثم ترتفع إلى رأسي عالياً وتنتفض عروقي المتصلبة من البرد، وأشعر بأنني أراهم جميعاً من سقف الغرفة. جسمي أصبح خفيفاً وأحسست بأنني أكاد أطير في الهواء عندما بدأت أصوات الطبول تصلني بجلبة قوية:

ـ دوم. . . كدد. . . دم.

ـ دوم. . . كدد. . . دم.

كانت هذه بداية الدقات لتعلن وجوب حلول الظلام، فيُطفَأ النور وترتفع ألسنة الدخان من المبخرة التي في وسط المجلس. كان هناك ضوء لا أعرف من أين ينبعث لكنني أستطيع أن أميّز به خيالات الأشخاص عندما يتحركون. تبدأ الأغاني الأفريقية الغامضة. وأنا لا زلت أرتفع في الغرفة ولا أرغب في النزول. كانت تتقدمني خيالات كثيرة تتشكّل وتنعقد أمام عيني الدامعتين، ثم يقشعر جسمي فأنتفض (كالبردان) الذي صُبَّ على ظهره دفْقٌ من ماء بارد، فيتقوس ظهري وترتفع تأوهاتي كالأنين الخافت. تعتريني تلك الرغبة... أتقوس معها... كانت جميلة بخيالاتها... أتحسس رقبتها السمراء... تراوح في مكانها... أبتسم لها وهي لا تنظر إليّ... لماذا لا تقتربين مني... أكاد أنفلت من مكاني... تحاول الاقتراب... تتجمّع في ذاكرتي الكلمات... تهرب من أرضي الشمس... أكاد ألمسها... تراوغني نظراتها... تنحدر كصرخات مجنونة... يترامى إليّ فضاؤها الفسيح... أراقب اشتعالها وتوقُّد رغبتها... تلمع عيناها بأنوثة متوحشة... أرى دمها ينساب بين يدي... أمسح به وجهي... الدخان يقيد حركتي. أتلفت في وجوههم المظلمة... لا يعرفني أحد... أبحث عنها بين ذلك السواد... لا أجدها، بل أجدني في الركن... أترنح بجسمي حول النار... أرفع يدي اقتراباً وابتهالاً لتلك الرغبات... أصواتهم تتراوح مع ابتعادي واقترابي... لقد جاءت أغنيتي... نظراتهم تتفحصني...

ـ كالردو... رمانادو... دد... دودد... دراناه.

تشققت حنجرتي بالصراخ... تقافز جلدي بي... فارتميت واقفاً... تعلقتُ بسحب الدخان... أصوات الطبول تضجّ في أذني متمازجة بأصوات لم أميّزها... صحت منفعلاً...

ـ كرررردن... داهم... كرررن... داهم... درن... درن.

شققتُ الثوب إلى نصفين... تباعدت أجزائي... أجذب يديَّ عندما أجده... تتلوى جنباتي... أراها أمامي إلهةً للفتنة السوداء... قبراً للتعاويذ... أتقدم منها... جسدها يقف جداراً... أتلمسه... أستنشق رائحته وأصرخ في خلاياه... تتعارك الأبخرة مع أنفاسي... شفتاكِ تغويانني بشبق يمزق جنون رغبتي... أمتص منكِ كل تلك الروائح العطرية... تتمازجين مع لعابي فأجده في فمي رحيقاً يختم جزءاً من نظراتي المغمضة... تتأجج رائحته بأصابعي التي تبحث في جسدكِ عن كل أشيائكِ... تنحدر على نحركِ وتختفي تحت النهدين وألتصق بكِ لتسقط يداي على رِدفيكِ تستجلب قسوتها اللدنة... أذوب فيكِ. أستشعر أسنانكِ ولسانكِ... أنصهر بين شفتيكِ...

تتفكك عباراتي بين أزماني... فلا تجد مكاناً غير تلك اللحظات بين أنفاسي...

لتخلق ذلك القدوم بين الأجساد.

فأتمزق شهوة...

وتتقسمين رغبة...

لنموت بهدوء...

بلا ضجيج مشنوق.

تراخيت... ونظرت إليها هامساً:

ـ رادوم... دركام... دمانو... دد... دوددد... دراناه.

ـ آآآه.

أتعلق بأسمالي الممزقة بتلك الصرخة الرهيبة... لقد انتزعت كل

أصواتي الماضية... أرجع بها إلى تلك الغابات... وتلك الأقدام الحافية... أرغب في تلمس غبارها... تتجسّد توحشاتي... أتعارك معها... أدخل إلى الغابة... أتسلق الأشجار... أتسابق فيها مع أبخرتي... مع صوت الطبول البعيد... كأنها تدق على قلبي... لقد شدوه إلى فتحة الزير... أرى نبضه يتدفق دماً حاراً تحت يديه القاسيتين... وأنا أتلوى... أنتصب وتتحرك قدماي... أرفع رأسي أبحث عنها... أرتعد بجوارها... أشير لها، بإصبعي المبتور، إلى قلبي...

- كاداني... دراومه.

- دراه.

- كاداني... دراومه.

- ...

لا تجيب... لم أسمع صوتها منذ سنين... قبل أن يحترق شعري... أراها تبتسم... ليتها تنظر إليّ... كفه تهوي بقوة... وقلبي ينبض... يشده إليه... يعطيه تلك الأصوات الناحبة... يتمزق أصواتاً هائلة... تتقاذفه لعناتي... تتراقص يداي إلى أعلى... تتطاير شعيرات جلدي... أراها تحترق... تذوب بخوراً عند قدمي... أستنشقها رغبة محمومة... للمرة المليون وأنا أُسمعها هذه الكلمات.

- تكانو... ترتيناها... دؤووم... دد... دد... دودد... درانا.

- ...

لم أجد كلمات أنطق بها... يجب أن أنطق بشيء... أن أهمس

شيئاً... أن أُطلق كلماتي كرعد يأتي قبل العاصفة... ومع العاصفة... أسرعت بخطواتي... أبعد كل المتحلقين... نزلت من على أشجار الغابة... تعفرت قدماي بالتراب الجاف... عدت سريعاً... أمسكت بالطبل... أخذت أُسرع في طَرقي عليه... تنحّى الجميع من أمامي... رأيت حيوانات الغابة تتسابق إلى التطلع إليّ... ازددت حدةً... أطلقت سهامي عليها... أصابت خنزيراً برياً فوقع فوق غزال ميت... تقافزت الجمرات من عينيّ... ارتعش جسمي... انسحبت على الأرض مع ذلك الخنزير قائلاً:

ـ ولو... ولو...

استجبت لهمهماتهم تلك... أكسر بها فواجع أصواتهم:

ـ كادِو... كادِو... كادِو...

أهز رأسي كمطرقة لا تزال تجدّ في إدخال مسمارٍ في صدري... تتقافز أظافري من حولي... وأنا أنطلق خلف الحيوانات... أتسابق مع أوراق الشجر على الشمس... أضيع مع حبات الرمل في الصحراء... أتصارع مع الماء وسط البحر... أرتعد ثلجاً في وسط الجليد... تتقدم أياديهم... لم ألحظها... أتفقد قلبي المشدود إلى الزير... لا أجده. لقد سرقوه.

ـ آآآه.

ـ انتبه... انتبه يا محمود.

لا أدري كيف وصلني ذلك الصوت. عندما فتحت عيني رأيت وجوههم تحدق بي. كلهم يتفصدون عرقاً. كنت أحاول الإفلات من قبضاتهم. ولكني عندما أدركت نفسي توقفت. كنت ألهث بشدة. العرق ألصق ملابسي على جلدي ولم أجد شماغي. أنفاسي كانت تملأ

المجلس. كانوا متحلقين حولي وقد أمسك بي اثنان وتوقف صراخ الطبل. ساد هدوء مرعب وأنا أجيل نظراتي بينهم وكأنني لا أعرفهم. أتطلع إليهم وقد تهدلت يداي بجواري كأنني عائد من معركة هُزمت فيها. ارتخت رجلاي بعد انتفاضة صغيرة.

ـ اجلس يا محمود.

ـ . . .

ـ كنت الليلة في القمة.

ـ . . .

لم أتمكن من الإجابة. كنت متعباً جداً. أشعر بأنني لن أستطيع السير بعد اليوم. قدماي ترتعشان، وصدري لا يهدأ، وأنفاسي مبعثرة. أجلسوني على الأرض. أسندت ظهري إلى المسند وأرجعت رأسي إلى الخلف. لم أجد طاقة لحمله فمددت قدمي أمامي وتنفست بهدوء، وأنا أتطلع إليهم إلى أن اختفوا من أمامي.

■ ■ ■

هراءً تحمّلنا لأنفاسنا بعد أن تكون قد توقفت تماماً عن الحياة. لقد كنت فعلاً أجد صعوبة في التنفس بعد أن كنت في قمة توقفي أمام تلك الحياة القصيرة التي عشتها عند عم آدم المفلوت. أعادني أصحابه إلى بيت والدي، كما عادتي كل مرة لا أستطيع فيها أن أستمر في الوقوف، إلى أن يدخلوني الدهليز. لحظتها يتقد ذهني وتبدأ أنفاسي بالمتابعة وأتلفت حولي مستنداً إلى جدار الدهليز وأبدأ صعود الدرج. دخلت غرفتي معانداً النعاس فأكاد أنام واقفاً. استسلمت للنوم سريعاً مهملاً الرائحة القديمة المنتشرة في الهواء، وغير مميّز للأصوات المحلقة حولي بخفوت. لمحت ضوء الفجر قبل أن أنام. كأنه إشارة البداية.

بدا لي نومي كأنه إغفاءة قصيرة. ريقي جاف وجسدي منهك. فتحت عيني ولم أتحرك. انهدامي كان منكسراً لحدود الألم. تلفت حولي مستجلياً طبقات الظلام المطبقة علي عن محتويات الغرفة. شعرت بألم في رقبتي. بلعت ريقي فأحسست به معفّراً بالغبار فازداد ظمئي. نهضت ساحباً قدميّ نحو المطبخ. لم أضئ المصباح فرهبة الظلام لم تعنيني. لشدة عطشي، شربت كوبين من الماء دفعة واحدة. عدت إلى السرير مواصلاً النوم.

كما تكون المدارات ملتفة حول الكواكب أشعر بأن الوقت يطويني، بتشابه دائري عجيب، حتى يتكون لدي ظن بأنه توقف. تفلتت الأيام وتطايرت من مدارها محكومة بقواعدها الصارمة لأعيشها كما تريد، متشابهة ومتجاورة ومتدافعة وكأنها تحاول الإمساك بي.

عندما أفقت من النوم كان الليل قد أظلم من حولي، وتأكدت من أنني خفاش نام طوال النهار. شعرت وكأنني نمت سنين واستيقظت في هذا البيت الصامت كقبر. وصلتني الأشياء سريعاً وتذكرت سراج الأعرج الميت وكأنه بجواري. ما حيرني أنني كنت أشم الرائحة الغريبة المختلطة بالدم تملأ غرفة سراج الأعرج؛ أشمها حولي بل أكاد أشعر بها تملأ أنفي.

نزلت من على السرير واتجهت إلى الحمام. كنت أحتاج إلى أن أغتسل تحت الماء البارد.

بعد أن لبست، أحسستُ بنشاط ورغبة في الذهاب إلى بيت سراج الأعرج لأنهي وضعه الغريب ذلك. فوجئت بوالدي موجوداً معي في غرفتي، كأنه نزل من سقف الغرفة أو كأن الجدار انزاح عنه. جلست على طرف المركاز الداخلي ليصلني صوته الخشن:

ـ سوِّ الشيشة يا محمود.

ـ . . .

لم أقل شيئاً. كنت مشدوداً إلى المفاجأة، ومتعباً. ولم أتردد عندما سمعت صوته القوي ينطلق في أرجاء الغرفة وكأنه يرعبها:

ـ بسرعة يا محمود. . . إيشبك مِبَلّه اليوم؟

ذهبت بسرعة إلى المطبخ، وأشعلت موقد الغاز، ووضعت

الفحم. كان (مرطبان) الجراك الفخار على وشك النفاد، فأطرافه المسودة من الجراك جفت تماماً وكأنها تشققت. أدخلت يدي بحذر متجنباً وخزات نتف الجراك الجافة على حافته التي كانت كالشوك. لم أجد إلاّ قليلاً من الجراك في قاع المرطبان فأخذت بمسح جوانبه وحك قاعدته بأظافري، وجسدي يقشعر من صوت هذا الاحتكاك بجدار المرطبان. فركت الجراك إلى نتف صغيرة تركتها تتساقط داخل رأس الشيشة الفخاري حتى تأكدت من كمية الجراك. نظرت إلى الفحم. لم يكن قد اشتعل. إناء الماء بدأ في الصفير. غسلت يدي على عجل وعملت شاياً، ثم وضعت الجمر على رأس الشيشة بحذر.

عندما دخلت ووضعت رأس الشيشة المزهر في مكانه أعلى الشيشة العدنية القديمة، كان أبي يتصفح بعضاً من أعداد جريدة **«الندوة»** القديمة التي كنت مصراً بغباء على الاحتفاظ بها. ذهبت لإحضار الشاي وعندما عدت بدا أبي متفتح الأسارير وكأنه أصبح إنساناً جديداً. تبدّلت ملامحه. تحوّل فجأةً إلى أب كنت أتمنى أن أجده، أن ألمس عطفه. تتجلى الآن على وجهه أبوّة منطلقة من عينيه. وضعت الشاي مركَزاً على ملامح أبي الجديدة وكأنها تشير إلى طريق بعيد ليس له نهاية. كان وجهه متفتحاً وضوء الصباح الخفيف يجعله أكثر انتشاءً.

تشابه النشوة، وإصرارها على أن تكون مبهجة، جعلاني متقداً، وكأن العواطف تدخلت لتصوغ لحناً أسمعه وحدي لأزداد طرباً وأتعلق بالزمن متمنياً أن تستمر هذه اللحظات دهوراً. وكأن أمنيات الكمال قد اقتربت من الواقع.

ليته يقترب أكثر مني ويمسح بيده (التي لا أعرف ملمسها إلاّ عند ضربي) رأسي. أتمنى أن يدنيني من صدره حتى أنصت إلى دقات قلبه

المنتظمة وأغمض عيني. لو أدناني من صدره فحتماً سأسمع نبض الحياة في داخله وسترتفع رائحته حولي دافعة حزني بعيداً، وسأجدها بعد ذلك معلقة بملابسي، رطبة ندية كقطرات المطر المتبخرة والصاعدة نحو السحاب.

ارتفع صوت كركرة الشيشة ورائحة الجراك مما دفعني في جلوسي الصامت إلى تأمُّل وجهه الصبوح. شاهدته يبتسم قائلاً:

ـ كان صباحاً مشرقاً عندما خرجت يا بني إلى الشارع، وكلمات رجال الشرطة ما تزال تتردد في أذني وصداها لا يبرح تفكيري.

كانوا كثيرين ومكوَّمين أمام دكان الحجامة ببذلاتهم الخضراء الداكنة عندما وقف قائدهم بزهو صائحاً في وجهي:

ـ ممنوع مزاولة الحجامة بعد اليوم.

ـ لماذا. . .؟

ـ توجد مستشفيات كبيرة ومستوصفات كثيرة في مكة. . . ولا داعي لهذه الشعوذة.

كان يقول تلك الكلمات كآلة جامدة، مثل (الراديو) البارد الذي لديّ، ومع ذلك كنت أحاول أن أشرح له ما أفعل:

ـ إنها ليست شعوذة بل علاج شعبي مفيد.

زجرني وكأنه لم يسمع ما قلت:

ـ هذا ليس من اختصاصك. . . هناك أطباء متعلمون ومستشفيات نظيفة بدلاً من هذه الأدوات القذرة والملوثة.

باحتجاج بسيط وفرحة قليلة شعرت بها، انطلقتُ بالحجج:

ـ ولكني أغسلها جيداً. . . بالماء المغلي. . .

لم أنظر إليه، اتجهت إلى الأدوات المبعثرة حولي ولممتُ بعضاً منها ويداي ترتجفان خوفاً وأملاً، فقط تساقط الخوف في داخلي فجأة ممزوجاً بأمل. أشرت إلى إناء الغلي وإلى لمعان بعض الأدوات ونظافتها. لم يتحرك من مكانه. رفع صوته ببرودة وحزم:

ـ لا تجادل كثيراً. . . ممنوع الحجامة. . . وإذا فتحت الدكان مرة أخرى فسوف نقوم بقفله بالقوة ونصادر هذه الأدوات المتسخة ونسجنك.

عرقي المتصبب ينهش وجهي، وأعصابي تالفة، والدنيا دائرة حولي تصدعني عندما رميتُ آخر كلماتي. كان سؤالاً عمّر منذ القدم في داخلي، إلاّ أنه ظهر فجأةً، وكأنه وليد لحظتها، فرميتُه في وجهه كحجر:

ـ وكيف أعيش؟

صمت فجأةً، كأنه لم يستطع الكلام، أو كأنَّ على رأسه الطير، فاستمررتُ في الكلام:

ـ الحجامة مصدر رزقي.

عاد وتماسك، إلاّ أن حيرته كانت واضحة عندما قال مسرعاً ملتفتاً إلى السقف:

ـ إعمل أي شيء آخر غير الحجامة.

ـ ولكنني لا أعرف ماذا. . .؟

قاطعني بمنتهى القذارة، رافعاً سبابته مهدداً:

ـ هذا تحذير وأنا منفذ للأوامر. . . ولا يهمني ما تعرف وما لا تعرف. . . هل فهمت. . .؟

ـ. . . .

تلك هي النهاية التعيسة التي كانت خاتمة لجميع مجهوداتي واجتهاداتي مع هارون معلّمي القديم الذي لم يكن يتردد في ضربي إذا أخطأت في استخدام أدوات الحجامة. . . التي علمني استخدامها وسط البخور كطقس ديني يداوي به جهلي ويقرّبني أكثر من الفهم. كان البخور يغطي في بعض الأوقات يديه وعينيه السوداوين الكبيرتين. فلا أكاد أتبين ما إذا كان يريد أن يعلمني أم يخنقني ببخوره الكثيف ذي الرائحة الغروية العجيبة. ومع ذلك أخذت كل شيء من بين أعمدة الدخان الملتفة حول تلك الهررة المخصصة للتجارب التي لم يكن هناك سواها يمكن أن تتقبل تلك المشارط الملوثة والأمواس المتثلمة من كثرة الاستعمال. . . ولكي أكون منصفاً فقد استخدم موسىً جديداً في أول درس، ولم يغيّر هذا الموسى إلى أن مات.

عندما مات وجدت ذلك الموسى تحت المسند الأحمر الخاص بظهره وقد علا أطرافه الصدأ واختفت منه صورة التمساح الصغير المقسوم من المنتصف.

ومع أن البداية كانت تبدأ بعد أن يذهب جميع المرضى، إلاَّ أنني أشعر بأن البداية كانت منذ أول نظرة من هارون فيها نوع من الغضب ممزوج بالدم. كثيراً ما تراءت لي هذه النظرة وكأنها قادمة من إناء الدم الفاسد الذي أمتصه من ظهور المرضى ورؤوسهم الحليقة. يصلني بعدها صوته الآمر بقوة:

ـ أشعل الجمر وأحضر المبخرة بسرعة.

بهذه العبارة أتحفز وتتقافز نظراتي إليه ويعتريني الكثير من الارتباك والتردد، فأندفع إلى خارج الغرفة وأنا لا أعرف ما هو الجديد في درس اليوم. لم يكن إشعال الفحم يستغرق وقتاً. كنت سريعاً في إشعاله إلى درجة كانت تدهش هارون فتظهر أسنانه البيضاء وكأنه يبتسم، وتبرق عيناه بوميض لا أكاد أراه. في أول يوم بدأ تعليمي فيه عدت سريعاً إليه بالجمر. نظر إليّ وكأنه لا يصدق متسائلاً:

ـ هل كان الفحم مشتعلاً. . . ؟

أجبته مباشرة بلا تردد، فلم ألاحظ نظرات الشك في عينيه:

ـ لا.

قلتها بتحدٍّ صبياني وأنا أنظر إليه. لم أكن أعرف ماذا يريد أن يفعل بالهر الذي بين يديه، لذلك أرسلني مرة أخرى حتى أحضر له ملقط الفحم من السطح الذي بجوار خزان الماء التنك.

عندما عدت كان كل شيء قد انتهى، فالهر أصبح مخدَّراً، وبدأ بالعمل. ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول أن أراه وهو يخدر الهررة. كان سريعاً لدرجة لم أستطع معها أن أراه يفعل ذلك سوى مرة واحدة عندما أحضرت له هراً كبيراً كان قد تسبب في إيذاء الكثير من أطفال الجيران. لقد خربش أربعة أطفال في وجوههم، وأعتقد أنه لم يترك هرة في الحفائر إلاً وأنجب منها أربعَ أو خمس مرات. كنت أراه كل يوم تقريباً يحاول مع هرة جديدة. وأكاد أجزم بأنه لا يتركها حتى تكون قد حبلت منه. جميع الهررة الأخرى لا تقترب منه. ربما كانت تخافه، فقد كان يبدو كنمر صغير له رأس ضخم، ويتبختر في مشيته كأنه الهر الوحيد في هذا العالم. أحد الأطفال قال لي يوماً:

ـ لقد شاهدت ذلك الهرَّ الكبير يأكل هرة صغيرة.

لم أكن أصدق ما يُقال عنه من أشياء. لقد استغرق مني صيده يوماً كاملاً مع أربعة من الأطفال الأشقياء، ولم يقع في الفخ إلاّ حين وضعت له قطة أغرته فتنتها ومغازلتها والوقوع بها. فوقع في المصيدة.

استغرق منه التخدير وقتاً طويلاً، رأيت خلاله كيف كان يضع قطعة من القطن على أنف الهرّ يتهاوى بعدها بلا حراك. ولكن ذلك الهر لم يكن كبقية الهررة. فقد تملص برأسه من يده وأنشب أظافره في ساعده وسمعته يصرخ بشدة:

ـ يا ابن الكلب... سوف أريك مَن هارون.

كانت قطرات من دمه قد انسابت على الأرض وهو يبلل قطعة القطن بالمخدر ويقول لي صائحاً:

ـ إذهب واملأ الطشت الصغير الذي في الحمام بالماء البارد وأحضره... بسرعة.

ـ ...

ومن دون أن أجيب أسرعت إلى الحمام وغرفت من الزير الموجود فيه عدداً من (المغاريف) إلى أن امتلأ (الطشت)، وعدت مسرعاً والماء يتقاطر من جنبات (الطشت).

ـ الماء يا عم هارون.

ـ ضعه عند قدميّ وخذ هذا العُري[١٦] اللعين، وضعه فيه... سوف أُنسيه حليب أمه هذا القواد.

ـ حاضر.

---

(١٦) العُري: اسم يُطلَق على ذكر الهررة في مكة.

وبكل جدية الموقف التي كنتُ عليها حينها، وضعت الطشت عند قدميه، وأمسكت الهر من عنقه بيديّ ووضعته في منتصف الطشت وهو ما زال ينظر إلى عم هارون بكره وقدماه تتحركان بتراخٍ بطيء. بعد أن توقفت حركة الهر تماماً وانتفخ بطنه بالماء الذي ابتلعه، أخرجته من الطشت ووضعته في التبسي أمام عم هارون، الذي بدأ في حلاقة وبره من منتصف الظهر، ولسانه لا يتوقف عن الكلام:

- يجب أن تنظف المكان جيداً.

- . . .

- تحسس مكان الألم.

- . . .

- إذا كان المكان مجروحاً فلا تعمل شيئاً.

- . . .

- تأكد من أن الموضع من غير عظام بارزة.

- . . .

- احلق الموضع أكبر قليلاً من مقاس كأس الحجامة.

- . . .

- بهذه الماكينة أولاً.

- . . .

- ثم بالموسى.

- . . .

لم أكن أتكلم. فقد كان سريعاً ولا يدع مجالاً لي كي أتحدث.

وربما لم يكن ينتظر مني أن أتكلم، ولم أحاول أنا الكلام. حلق وبرَ الهر فتبدى جلد الظهر قليل الاحمرار يميل إلى الزرقة.

ـ هذا اللون من كثرة المخدر... لا تأخذ في بالك.

ـ ....

ـ أمسك الموسى بهذا الشكل.

ـ ....

ـ اشرط جرحاً واحداً فقط من على السطح فقط.

ـ ....

ـ الجلد هو الذي يجب أن يتمزق وليس اللحم الذي تحته.

ـ ....

ـ خذ الموسى وجرب.

ـ ....

أخذت الموسى وأنا أرتعد بالرغم من أن هذه هي المرة الرابعة. ولكني في كل مرة كنت أرتعد. هذه المرة كانت يد عم هارون تثير الرعب في داخلي، فقد مدها إليّ وهي ممكسة بالموسى وقد تلطخت بوبر القط الأسود والأبيض، والقليل من الدم، وأصابعه كانت متصلبة للغاية على الموسى. لذلك ارتعدت وأنا آخذ الموسى منه.

ـ لا تخف... تشجع.

ـ ....

بلعت ريقي. هدأت نفسي قليلاً وبدأت العمل. شرطْتُ الجلد بخفة لا أعرف من أين أتتني، ثم نظرت إلى عيني عم هارون فرأيت علامات تشبه السرور.

خفَتَ صوت أبي وراح يتمتم بكلمات غير مفهومة حتى تدلّى رأسه على صدره، وكرشه يرتفع وينخفض بانتظام. كان رأس الشيشة قد انتهى، والنشوة التي كانت تعتريني تبددت. بعدها شعرت بذهاب أبي في سبات عميق كأنه ميت.

خرجت من الغرفة متمهلاً وانطلقت إلى الشارع متجهاً نحو جبل الحفائر القاتم.

■ ■ ■

كان ظلاماً دامساً عندما فتحت عينيّ. لم أعرف لحظتها هل نمت أم أنني لم أنم بعد. ما يذهلني أنني أجد نفسي الآن في بيت سراج الأعرج. هذا البيت يكاد يصيّرني مختلاً. هل من المعقول أنني لم أذهب إلى أي مكان؟ بالطبع لا. بالتأكيد لا. فقد رأيت أشياء كثيرة، وتحدثت... وأكلت... ما هذا؟!

لا أستطيع أن أصدق أنني لم أخرج من الغرفة اللعينة هذه. نهضت لأبحث عن أدوات الحفر المرمية في الركن. زاد دهشتي أنني عندما تطلعت إلى الركن لم أجد شيئاً. كانت الحيرة مسيطرة عليّ. بحثت خلف الزير فربما تكون هناك. لم أجد أي أثر. لم أعثر حتى على آثار الحفرة الصغيرة التي أرهقني حفرها. الأرض، كما هي، ملساء رطبة برائحتها الصخرية النفاذة، مستسلمة لقطرات الزير الهادئة وكأنها في منتصف العالم.

ـ لا يمكن.

قطعاً أنني جُننت. نظرت إلى باب الحمام بذهول ثم إلى سور الحوش، ثم إلى الضوء المعتم في الركن. كانت جميعها صامتة. أطياف يتآكلُها الصمت، جامدة كقبور من دون همس، ولا ضحكات.

تكومت على نفسي في ركن الحوش الملاصق للغرفة بتعب. كان ركناً باهت الضوء. أتكوم بخوف وهزيمة، والرعب يمزقني. أرهفت سمعي ورحتُ أتحسس الأصوات البعيدة التي كانت تزيدني رعباً. كان يتراءى لي صمتُ الصخور الصماء صراخاً مفزعاً يحيلني إلى كتلة من لحم مرتجفة، لا يسكنها إلاّ الهلع. صار رعبي بحجم الأسرار المدفونة في الحفائر، رعباً بلا نهاية، يكاد يوقف قلبي في هذا الركن. خوفي هذا يشبه صرختي عندما اختل توازني وأنا أمام بيت سراج الأعرج قبل أسبوع. كنت صاعداً الجبل متجهاً إلى بيت سراج الأعرج عندما توقفت أمام الدرجات القليلة المتراصة أمام طرف الباب السفلي. أصابتني تلك العتبات بالرعب. لم أدرك وجهتي؛ هل أنا صاعد أم نازل. اختلفت عليّ الدرجات فقد بدت كأنها مكسورة من جميع الأطراف. تبدو كسطح مائل غير متساو. كدت أسقط مرتين وأنا أصعد الدرجات الأربع القديمة. أحسست بالهاوية في كل ترنح. تردد في أذني صراخي عندما ترنحت. سمعت وقعه وهو يبتعد عني مسرعاً، كما أسمع صوت صفير الريح وهي تبتعد ناحبةً.

بين الحين والآخر كان وقع خطواتي المتعثرة يتزاحم مع نباح الكلاب، فأفقد السيطرة للحظات على نفسي. أتلفت حولي، ربما رآني مختلاً أحدهم. لا أسمع سوى أصداء نباح الكلاب. فأحاول الصعود مرة أخرى.

طرقت الباب. أتاني صوت سراج الأعرج المبحوح من الداخل، كأنه قادم من كهف.

ـ مين . . .؟

كانت أنفاسي لاهثة وأنا أجيبه:

ـ أنا يا سراج.

ـ مين أنت...؟

ـ أنا محمود يا واد. افتح بسرعة.

ـ عم محمود تكنيري.

أجبته بنفاد صبر:

ـ أيوه محمود تكنيري. افتح بسرعة خلصني.

ـ طيب... طيب...

ـ ...

تطلعت خلفي فبدت أنوار الحفائر تنسحب من المصابيح البعيدة فتبدو كسماء تحتي، لها نجوم صفراء وأخرى بيضاء. فتح الباب فصدمتني رائحة البيت الكريهة مختلطة برائحة طبخ غريبة:

ـ إيش هادا يا سراج... ساعة حتى تفتح الباب؟

ـ معليش يا عم محمود أنا كنت أسوّي العشا... تفضل، البيت بيتك.

ـ ...

لم أجبه بشيء. دخلت وأغلقت الباب بسرعة فيما اتجه هو إلى (طباخة الكاز) التي كانت موضوعة خارج الغرفة، عند ركن البيت، وقد اسودَّ الجدار خلفها. أخذ يقلب ما في القِدْر الأسود بسرعة. ومن دون أن يلتفت إليّ سمعته يقول:

ـ تفضل يا عم محمود... ترى حماتك بتحبك... جاي على العشا على طول.

ـ عشا إيش. أنا متعشي.

ـ يا عم محمود لقمة هنية تكفي مية مو اتنين.

عبرت المدخل إلى غرفته الوحيدة وأنا أتطلع إلى الطباخة التي بهت لونها الأخضر وتحول إلى أسود، وتراكمت عليها طبقات من الغبار وبقايا من الأطعمة المحترقة. لاحظت تناثر حبات الأرز البيضاء حولها، وبعضاً من قطع البطاطس المحترقة. كانت مفتوحة الغطاء وقد انقلب بإهمال بجوار «جالون» تفوح منه رائحة (الكاز)، الذي كان بلا غطاء أيضاً.

ـ ليش ما تصلح الطباخة القديمة بدل ما تحرقلك البيت...؟

ـ يا عمي... هو فيه في البيت شيء يستأهل...؟

ـ ...

لم أجبه بشيء بينما تابع هو تقليب الأكل في القِدْر بعد أن دفع بيده الأخرى جزء الطباخة الداخلي المثني ورمى به بجوارها، ويبدو كأنه داسه بقدمه وحاول تعديله ولكنه فشل فتركه مهملاً جوارها.

كانت الحرارة مرتفعة داخل الغرفة فتفصد العرق من جسدي. كان (السّموم) يهب من النافذة في هذا الوقت وكأننا في وسط النهار، فيلفح الوجه ليجففه قبل أن يبتل بالعرق. جلست على الكرسي وأنا أقول:

ـ إيش تتعشى يا سراج؟

ـ فضلة خيرك، رز وشوية أدام بطاطس بايت أعطتني هو ستي معتوقة القرملية اليوم بعد العِشا.

ـ وإيش عرفك أنه بايت...؟

ـ ريحته، وإنت عارف ستي معتوقة يا عم محمود...؟

ـ أعرفها ست طيبة وتحب الخير.

ـ أنت اللي طيب يا عم. . . على فكرة، تراها كانت تدوّر عليك وصّتني أقولك تمر عليها بكرة!

ـ وليش ما قلت لي من بدري؟

ـ هو أنا شفتك. . . دوّرت عليك في المدرسة قالوا خرجت من بدري. رحت البيت ما لقيت أحد. سألت عم قدري قال يمكن في القهوة. قلت بعدين أمر عليك ونسيت.

ـ طيب وما قالت لك متى تبغي أمرّ؟

ـ قالت في العصر بكرة.

ـ طيب. . . أنت ما خلصت تسخّن الأكل. . . بسرعة هو أنت بتطبخ ولاّ بتسخّن.

ـ خلاص أنا أنتهيت. . . دحين جاي.

أخذت أتطلع حولي في الغرفة بلا هدف محاولاً قتل الوقت. كان المصباح الكهربائي (القلم) المعلق أمامي مائلاً إلى الأسفل قليلاً من الجهة اليمنى، وأطرافه صدئة، وغطاؤه مخلوعاً، فبدت أسلاكه مصفرة، وقالبه الأسود على وشك السقوط. أما اللمبة الطولية فقد اسودّت أطرافها وانتشرت مخلفات الذباب على ما ابيضّ منها.

دخل سراج حاملاً جريدةً قديمة بيد، وبالأخرى القِدْر الأسود وضعه على (حنبل) أطرافه منتّفة وعند طرفه بقعتان كبيرتان محروقتان في ركنه الأيمن. حاولت أن أتبيّن لون هذا (الحنبل). لقد أكل الدهر عليه وشرب. يعلوه الكثير من البقع الزيتية المغطاة بطبقة من الغبار. اللون الأحمر تحول إلى بني والأزرق تحول إلى أسود، ولم يُكنَس منذ سنين.

قام بفرد الجريدة ووضع القِدْر، ثم خرج وعاد بصحن (الإدام) وبرغيف من الخبز الأسمر.

ـ تفضل يا عم محمود.

ـ أنا الحمد لله أتعشيت.

ـ طيب اجلس ونقنق معايا.

ـ بالعافية. كل أنت وبعدين نشرب الشاي مع بعض.

انتظرته وأنا محتار من هذا الصبر الذي هبط عليّ فجأة، إلى أن انتهى من الأكل. في كثير من الأحيان أشعر بأن سراجاً يمتلك حكمةً كبيرة يتعمَّد أن يخفيها بملابسه المتسخة تلك وحركاته الساذجة. لم أمهله ولم أعطه فرصة إلى أن لمعت عيناه وهو يتحدث:

ـ أنت تريد أن أحكي اللي سمعته في بيت النجار.

ـ أيوه... احكِ وخلصني، تراني طفشت منك.

ـ لا تطفش ولا شي... أنا كنت ماشي جنب البيت في الليل. الكوّة كانت مفتوحة والنجار عم حسنين واقف زعلان ويزعق.

نسيت كلماته. فعندما بدأ بسرد كلامه شعرت بأنه قد تحول إلى مسخ خفي يتلبس في مخارج حروفه وكأنه يهزأ بي. كلماته تلك اختلفت كثيراً بقدر استعادتي لها حتى وكأنني أعيد صياغتها في كل مرة أتذكرها. استعدت تفاصيلها التي كان يبعثرها سراج الأعرج، ونسيت معاناتي معه لكي يتماسك في سرده. كان يفقدني السيطرة على نفسي عندما يتوقف فجأة ويبدأ في الأكل من غير أن يعرف أنه كان يتكلم معي، فأعاود تذكيره بما قال ليواصل بعد أن أكون قد تفجرت غضباً. لم أجرؤ على التفكير في ضربه من قبل، ولكنني ليلتها فكرت كثيراً في ذلك.

كان حواراً متقطعاً أعدت تركيبه في ذهني عشرات المرات إلى أن رضيت عنه أخيراً. فهو لم يقل شيئاً مفيداً. كان مرةً يحكي، ومرةً يأكل... وأحسُّه في كلتا الحالتين يهزأ بي. كنتُ أحاول ألا أفقد أعصابي، غير أنني ما عدت أقدرُ حينها على أن أتحكم بنفسي. لقد اقتربت مع سراج هذا من الجنون.

كانت تتقاسمني الرغبة في أن أفعل أي شيء من غير أن أُعلم أحداً. حتى نفسي كنتُ أودُّها أن تفاجَأ بما أقوم به كأنها تشاهده من الخارج أو من بعيد، ومن قِبَل غيري. لم تتغيّر هذه الرغبة طوال السنين وهي تتجدد وتظهر أمامي كحاجز أستمتع بعدم تخطّيه.

في اليوم التالي، وقفت أتطلع إلى تراب الحفائر المختلط ببقايا الحمام في حوش ستي معتوقة وهي جالسة في الركن على كرسي بسيط الارتفاع ممسكةً رأسَ الشيشة بيدها اليمنى، ويدها اليسرى تفرك الجراك بعد إخراجه من المرطبان الفخاري الذي تعتز به كأنه تحفة لا تُقدَّر بمال. لم تسمح لي بالقيام بمساعدتها في عمل رأس (التعميرة)، فهذه الأمور تعتبرها من طقوس الجراك التي يجب أن يقوم المرء بعملها شخصياً إذا كان من مريدي الشيشة، ولكي يتم تعمير الرأس إلى أن يشعشع ذلك البريق وتهتز النشوة فتقترب من الدخان أكثر فأكثر إلى درجة الالتحام فتتسلقه ويبقى الجسد بجوار الشيشة مستفَزَّ الحواس، ومستعداً للغوص في أجمل الأفكار وأكثرها تعقيداً من غير أن يعرف كيف يتم ذلك.

ـ أمسك الرأس يا ابن الكلب... أمسك ياسربوت... أنت ما تسمعني؟

كنت أتطلع إليها وهي قادمة من ركن الحوش ممسكة برأس

(التعميرة) وكأنه كنز. فبرغم أنها بالكاد ترى طريقها، إلاَّ أنها تصرّ على الذهاب إلى ركن الحوش لعمل الرأس ثم تعود لتشتكي من ألم المفاصل وتطلب المساعدة لحمل الرأس.

ـ طيب... طيب... يا ستي... باسمعك.

ـ تعالَ خذ الرأس وحطه على الشيشة اللين ما أرجع من الحمام...

ـ حاضر... تحبي أساعدك في الحمام؟

وكنتُ أتصنّع الحزم وهي تلهث من التعب:

ـ ولد... اسمع الكلام وبلاش تريقة.

ـ ...

عادت من الحمام وأمسكت ليّ الشيشة مباشرة، وأخذت في سحب عدد من الأنفاس لتعبق رائحة الجراك في الغرفة. بعدها التفتت إليّ بعد أن بسطت أساريرها

ـ كان أبوك من الناس الذين يحيّروا في البداية. ما كان أحد يعرف إيش ممكن يسوّي. كان يحيرني كتير اللين عرفت طبعه مع الأيام والسنين. عرفت كيف أتعامل معاه. كان زمان شباب وفي عزه. بيني وبينك كنت أتعجب من نفسي وأقول أنتِ ليش ما فهمتيه بسرعة من البداية؟ قصر الحكاية، ما كان أبوك يحب الكلام الكتير، لكن لمن يتكلم ما أعرف كيف أوقفه. أتزكر مرة كشفته فيها متلبس بعملته. كنت فِـ جلسة زار هنا فِـ بيتي هذا. وبعدما ولعت الجمر حطيت عليه البخور المرطب أشرت للبنات عشان يبدأوا الدق على الطِيران. وشوية لمن حمي الجو قامت الحريم تهز على الطبول. كانت الحريم زمان زي الثعابين طرية وما تعرف لها طرفاً. لمن الواحدة فيهم تهز تشوف قلبك

يهز معاها، لأنها ما تخلي وصلة فِـ جسمها ما تهزها، وعلى الدقة، كأنها مربوطة بالنغمة. وفي منتصف الدق تسمع أصوات الحريم تطلع وكأن الجن هي اللي تصرخ مو الأوادم. ولكل واحدة دور كأنه راكبها جني يصرخ عنها.

بدت لي جدتي معتوقة وأنا أتطلع إليها، كأنها قد أعادت إلى ذهنها أصوات الطبول بالفعل، وكأنني بدأت أسمعها أنا أيضاً، والضوء بدأ بالانسحاب من أمامي ليرتفع البخور من الجوار وأتكوم في الركن صامتاً. كان صوت جدتي معتوقة يأتي من الجدار وهي تتابع كلامها قائلة:

ـ أكون أنا تحمست ونزلت أرقص معاهم بس على خفيف عشان بنت الزار لازم أنتبه لها وإلاَّ ترها تروح مني. عشان كده عيني ما تنزل عنها وهي تنتفض وشفايفها مزرقة وحالتها تحزن. دائماً تلاقيني جنبها ومعاي الطار عشان أطلّع الجني قبل ما تفيق. عيني دائماً تدور في الغرفة وأتطلع من الباب. ضربت بعيني ليلتها في الباب إلاَّ وألاقي عيون مولعة. كنت أحسبها بسة ولاّ عُّري. لكني لمن قرّبت من الباب والتفت تأكدت من أنها عيون أبوك الملعون. كان يطالع من الظلام وكأنه يشوف الجن اللي يطلعو من الحريم. ساعتها أنا خفت أقول راجل يروح يتخبص الزار عليَّ وتصير خبيصة. قلت يا حرمة كملي وبعدين ليّ كلام معاه. وتجي من ربنا تطيح بنت الزار وأرتمي جنبها زي الخرقة والبخور كاتم على أنفاسي وأنا أنتفض وجسمي كله يرتعش.

كانت أنفاسها تتسارع إلى أن تذكرت وأدركت نفسها وتطلعت إليّ من غير أن تنتظر إجابة. لم أتكلم. أكتفيت فقط بأن رسمت على وجهي الرغبة في مواصلة سماعي الحديث.

ـ سامحني، يظهر أني نسيت نفسي زي العادة لمن أتذكر الزار وأيامه الحلوة. . . المهم لمن قمت اليوم الثاني في الصبح استحميت وفطرت ورحت لأبوك في دكانه. ترى، كانت الحجامة أيامها زي المستشفيات تروح لها الناس عشان تتعالج. . .

ـ وبعدين.

ـ ـ خلاص روح أنت ما تفهم. . . ؟

ـ . . . .

ارتفع نباح الكلاب حولي وكأنها داخل الحوش أمامي. نباحها القوي دفعني إلى دخول الغرفة متعثراً بجثة سراج الأعرج، وغير مكترث بالعفونة المتصاعدة من جدرانها.

■ ■ ■

لـم أهـدأ. ولـم أدع جداراً حولـي يـهـدأ. مـاذا فـي الأمـر؟ كـيـف وصلت إلى هذه الدرجة من الحقيقة؟ ماذا حصل؟ سراج الأعرج مات، وأنا جُننت، والأشياء تتحرك برغم ثباتها الأبدي، والأصوات ساكنة ومعلقة في السقف فوقي ساحبة إدراكي معها، فأراه يتدلّى مشنوقاً من السقف. لن أستطيع أن أتعلق بعد اليوم بهالات الصمت. لقد دخلت على سراج الأعرج بيته في أول الليل. كنت قبلها قد صعدت الجبل إلى أن وصلت إلى خرابته العفنة.

كانت عقارب الساعة تتحرك ببطء كولوج العتمة مستللةً إلى ثنايا الضوء، مع المغيب. توقفت ونظرت إلى أعلى. بعض السحب القليلة معلقة في السماء. كل ما فوقي من أشياء لا أراها، ينفجر إلى نصفين، وتصدر عنه أصوات سحيقة تتردد في سكون الحفائر؛ لتتحول إلى صراخ متسلل إلى أعماقي بقسوة مخيفة دفعتني إلى أن أتوسّل القيامة أن تعلنَ قيامتَها في تلك اللحظة. لقد بدا لي أن نهاية العالم ستبدأ من هذا المكان العفن، وأن مياه الطوفان ستلامس قدمي بعد قليل.

ترعبني الدرجات القليلة التي عند الباب. الحرارة اللاهبة تجعلني أنزف عَرَقاً، والسَّموم يهب في هذا الوقت فيلفح وجهي.

تنسحب الأنوار من مصابيح البيوت البعيدة فتبدو تحتي كسماء لها نجوم صفراء وبيضاء، شاحبة كلون الحزن. من بعيد يتعاظم نباح الكلاب فأسرع إلى الباب أطرقه بقوة. فتح سراج الأعرج الباب ونظر إليّ.

عاد وأكل، ثم ذهب ليغسل يديه وينظف الأطباق. خرج من الغرفة فأخرجت علبة (النيدو) من تحت السرير. كانت حركة شعرت بأن هاجس الموت أوحى لي بها.

دفعت العلبة ليجلس عليها فإذا به يهوي برأسه عليها ويموت مبتسماً.

نظرت إلى جثته تنتفض وأنا أكاد أختنق، ثم استندت إلى الجدار محاولاً أن أستجمع قوتي. كأن الوقت توقف فعادت الحياة أدراجَها، إلى حقيقتها الصاخبة. لم أذهب بعيداً عندما بدأت أسمع أصواتاً من مصدرها الخفي. لست جازماً تماماً بأن هذا قد حدث بعد أن مات سراج الأعرج، أم أثناء خروجه من الغرفة. كان زمناً ضائعاً فعلاً. ارتخيت لحظتها فوق السرير. لست مصدقاً ما يحدث. هل هناك حركة خلف هذه الأحجار تحيل هذه الغرفة إلى قارب؟ أم أنني فقدت توازني بوجود الدم في هذا الجبل؟ ثم ما هذا الخوف الذي ينتابني ويحيلني إلى ورقة في مهب الريح؟ أتذكر أنني أسندت ظهري إلى الجدار كما أفعل الآن. كانت الجلسة نفسها في أول هذه الليلة الطويلة، وتحتي جثة سراج الأعرج منتفضة كأنها تحاول النهوض. صراخ وقرع طبول أصمّا أذني، وكادا يفجران رأسي. أتوسل هذا الصراخ، وقرع الطبول هذا، أن يتوقفا. . . لكنهما يستمران في هذا العبث المجنون. . . لقد تعبتُ تماماً. رأسي صار نصفين.

وضعت رأسي بين يدي وضغطت عليه ربما يخفّ الألم. يبدو أن قرع الطبول البلهاء هذا، أصبح صراخاً بشرياً يشبه دمدمات العبيد، حتى صرتُ كالمعتوه لا أعي شيئاً، مسحوقاً ومصلوباً كرماد من دون حياة، متكوّماً في الركن.

كانت دمدمات العبيد تترافق مع الأفق وتتحول إلى ما يشبه الورد المتآكل المنثور على الأرض لتطأه الأقدام المتشققة. ينتصب فجأة سراج الأعرج ويرسل نظراته الحارقة صائحاً:

ـ أخيراً أتيت يا محمود يا تكنيري.

ـ . . .

لم أستطع الكلام. فأنا لا أرى نفسي أو أي جزء من جسدي. لقد كنت أحسبه ميتاً عند قدمي، ولكنني تناسيت هذه الحقيقة؛ لأحاول أن أعرف كيف رآني. فقد حدقت فيه، حاولت أن أتكلم. تعذبت إلى أن سارع في الرد عليّ بقوة:

ـ أعرف لماذا أتيت. سأحكي لك منذ البداية؛ البداية التي أعرفها. فأنا على يقين من أن هناك بدايات كثيرة لا أعرفها تماماً. وستعرف إجابات الأسئلة التي تدور في رأسك. رغبتي في الكلام كانت معدومة. تتزاحم الحروف على طرف لساني فلا أستطيع أن أنطقها، لتظهر في كثير من الأحيان كجزء لم يكتمل، أو أني أحمل عيباً خلقياً يعوقني عن النطق. لا أقوى على إخراج الكلمات من فمي الفاغر دائماً، كأبله لا يستطيع نطقاً. كيف أتيت إلى مكة؟ سؤال ليس له إجابة قاطعة. ربما قدمت للحج. ربما تناقلتني الهوادج أو أنني وُلِدتُ فيها. كل الذي أعرفه أنني سراج الأعرج، لا غير. تقدم بي الزمن منذ أن كان سراباً في أطراف الحفائر، يتجمع عليه الغبار ولا يلمسه أحد. جسمي يتمايل إلى

الأمام وإلى الخلف بتناغم غريب تعودت عليه. أشعر بوجودي المستمر كأن العصور تناقلتني إلى الحفائر. رث الثياب، منعدم الفهم، قليل الحيلة. الذي أطلبه من الناس الاستمرار في الحياة. ليس مهماً هذا الاستمرار أكان بهم أو من خلالهم أو حتى فوق أجسادهم المتعفنة. النظرات هي المنقذ الوحيد الذي أتعلق به كلما صادفتني تلك الرغبة الملحة في الكلام. ومع أنني لا أتذكر كيف وصلت إلى هذه الحالة، إلاَّ أنني أجد الكثير من التصرفات التي يقوم بها مَن حولي تضعني في موقف العاجز تماماً عن عمل شيء مهما كان تافهاً. صدقت معها ذلك، وأصبحت لا أرغب في القيام بعمل، إنما أحب أن أنظر إليهم وهم عراة من دون أن أخجل أو أشعر بعيب؛ ذلك العيب الذي كان يحدثني عنه العسة محمود الدنديري؛ أهم عسة في الحفائر وسبب النحس على أهل الحارة، وخصوصاً أنا. كانت هناك أحداث كثيرة تقع لا يجد أحد تفسيراً لها إلاَّ أنا، فقد كنت متأكداً من أن سببها الرئيسي هو محمود الدنديري النحس. كان موت مرزوق أبو حبة مشكلجي الحارة، هو أول حدث عندما جعل منه العمدة واحداً من عسسه. لقد كان موته غريباً. مات في الحمام فجأة؛ ربما توقف قلبه. عندما كسروا باب الحمام وجدوه عارياً تماماً ومتكوماً على الأرض ورائحته لا تُطاق. حتى بعد أن غُسل وعُطر، كثيرون كان يشمون رائحته العفنة طوال حملهم للنعش إلى أن وصلوا القبر. كان حادث مرزوق أبو حبة سبباً لتفاؤل أهل الحفائر، فقد أراحهم من أكبر مصدر للمشاكل. وعندما أنجبت زوجة محمود الدنديري ولده الكبير حسن، مات عشرون حاجاً في الحرم قبل أن يذهبوا إلى الحج. عندما مرض مرضه المزمن، فقد العمدة زوجته وهي تضع مولودها الثامن. ومع ذهابه إلى المدينة انقلبت بهم السيارة ومات كل مَن معه إلا هو، فقد كان يساعد في نقل الجثث إلى سيارة

الإسعاف. كانت حياته سلسلة من النكبات والمصائب التي تصيب أهل الحارة من غير علم منهم. عندما أنهى خدمته الرسمية، وفي أول يوم له بلا عمل رسمي، أُقفل دكان الحجام مسعود تكنيري. مع كل هذا، أجد في الحارة من ينظر إليه على أنه أحسن عسة في مكة كلها، ويباهون به. بل كان العمدة يتفاخر به على عمد الحارات الأخرى.

ـ . . .

ـ أعود إلى نفسي فأجد الأتربة تتزاحم مع غبارها الزمني لتصلني ضبابية، تنتشلني من وسطها إلى أنْ تقذف بي بين الصخور فأكاد أتيه ولا أعود أجد نفسي. كانت لحظات وجودي الأولى في الحفائر عند باب المسجد تتشكل أمامي بخوف. أستقبل عيون سكان الحفائر المنفتحة على اتساعها وكأنها تحاكمني بصمت. أشعر بتساؤلاتهم ولا أجيب. كانوا متجمهرين حولي بكثرة أتحسَّس أياديهم الضخمة تتقدم نحوي. أنهض وأحاول أن أمسك بيدك الممدودة نحوي. أشم رائحة عرقها البارد. وعندما دنوت تلاشى كل شيء. لم يكن أحد هناك، كالدخان يسرقه الهواء عندما أقبض عليه. عندها تشكل العبيد وبدأوا مسيرتهم اللانهائية نحو الحياة. تكونهم جعل مني متحكماً في مخيلاتهم، أتابعهم أمامي وأتعلم منهم.

قاطعته متخوفاً:

ـ لكنني لم أُولد عندما قدمت إلى الحفائر.

ـ لقد كنت موجوداً في أبيك وبجواره، حتى أنني تخوفت من أن تراني بتلك الحالة.

ـ أنا لا أفهمك.

ـ لا تهتم، فعدم فهمك لا يعني أنني لم أشاهدك يومها. بعد أن

تفرقوا أدركت أنني وحيد إلى أن رأيتك بعدها بأيام فأحسستُ بالدنيا تظلم أمامي، وانطلقت في شوارع الحفائر باحثاً عن النور. انتقلت من حارة إلى حارة من دون أن أجد شيئاً. كنت أسير في وسط مكة وبين أعمدة (المدعى) متطلعاً إلى الناس. تتعثر قدماي ببقايا الكراتين وعلب فارغة لأشياء كثيرة وألوان مختلفة. الخطوات تكاد تدهسني. أحتاج إلى الكثير من الأزمان إلى أن أصل إلى تلك القناعة القاطعة بوجودي. أكاد أجزم بأنني الآن غير موجود. تباعدت الدقائق عن بعضها وانحشرتُ أياماً وشهوراً كثيرة بينها. تختفي الصورة أمامي ولا أعرف كيف فقدتها. أجلس مترقباً عودةَ تلك الدقائق بقلق إلى أن تصلني. أتلمسها بشبق كامرأة عارية تقف أمامي، فأتصبب عرقاً وشهوة حتى تختفي. أتقلب بين جبال مكة كسائح ضلّ طريقه في متاهة صلبة وجافة لا تعرف شمسها الظل. أبحث بين أحجارها عن الأميرات الجميلات بملابسهن البيضاء وجواريهنّ النواعم، ولا أجد غيري وسط أمواج من العرق وأبخرته النفاذة.

توقف سراج عن الكلام وساد صمت أدركت بعده أن المساء قد أطبق، والعتمة لفت الكون فوق رأسي مطلقة نجومها المضيئة لتنير السماء. كان صوته يتلاشى كلما ابتعد عني ورائحة الصخور النارية تنطلق منها لتزيد من وجوم الليل. ظللت واقفاً مراقباً اختفاءَه من أمامي ببطء؛ شعرت عندها بخوف من فَقده. لم أكن أعرف غيره في هذا السديم المقفر.

أخذت أتتبعه عن بعد. خرجت من بيته من دون أن أغلق الباب. كان يظهر ويختفي أمامي كأنه يتكون من الهواء ويتبعثر فيه. لمحت العبيد بالجوار، وشعرت بأنني قد اعتدت على مشاهدهم المختلقة هذه وأصبحت أشعر بأني أحتاج إليها بين وقت وآخر. لكنني الآن متشبث

بها، وأحاول أن أتيقن من حدوثها.

كان العبيد يعملون بصمت كأنهم لا يعرفون الكلام. أحدهم يحمل بعض الصخور وآخر يزيح التراب، وثالث يرفع بعض الأخشاب. يمسحون جباههم بأطراف أكمامهم المسودة ليعودوا للعمل وكأنهم لم يعملوا من قبل. كنت قد توقفت في المكان الذي سيبنون عليه بيتاً، عندما وصلني صوته الغريب من بين الصخور الحارقة؛ كأنه يبحث عن أحد يسمعه. فأنا أعرف سراج الأعرج من صوته الذي سمعته آخر مرة. كنت أبحث عن سبب لتكونه، الهوائي، أمامي، وأحاول أن أعرف الزمن حولي. لكن سراج رفع صوته منادياً:

ـ أخيراً أتيت يا محمود يا تكنيري.

ـ . . .

لا أعرف ما يحدث معي. يتحجّر الكلام دون لساني، كهذه الصخور التي جاء من بينها سراج الأعرج، فلا أستطيع النطق بحرف. سارع هو، من دون أن يهتم بعمل العبيد في الجوار، ليتابع كلماته؛ فتصلني جوفاء متربة.

قال مرتعداً ومكملاً ما قاله من قبل، أو هكذا خيل إليّ؛ فقد كنت أتحرق لسماع حكايته الوهمية تلك:

ـ كان الهروب من القتل بالقتل. كانت البداية هرباً من الموت لتنتهي بمسايرة الموت في كل اللحظات. لم أقتله متعمداً. كان هو القتيل منذ الأزل. لقد أشعل نار المزمار عندما كان المزمار رقصة القسوة والقوة والموت. . . ورقصة الحياة. تتنفس حواري مكة وأزقتها دخانه وأتربته المتطايرة، وتتعلق رواشين البيوت بأصوات الطبول والزومال القادمة من شعلة النار المتأججة في منتصف دائرة المزمار. لم

يكن أحد يعرفه كما عرفته الحفائر في المزمار. فحسنين أبو حنة كان لا يقاوَم عندما يدخل حلقة المزمار. له قوانينه الخاصة، واندماجه الخاص، وحركاته المحيرة. عندما يلعب ويدور بجسده المتناغم ويده الممسكة بشونه المحنيّ والمزيّت، فإنه يحلق حول نفسه ويرتمي بشونه على مبارزه بقوة مما يجعل الخصم يسمع دمدمة لها سحر الليل والنهار. لم يكن يسمح لأحد بأن يوقف تجاوب الطبول لبعضها، حتى تهدأ فورته ويبدأ دمه بالركود، لينهي رقصته بهزة مرتجفة يقف بعدها داقاً بشونه على الأرض، فينتصب جسده كله كعمود لثوانٍ قليلة وتتوقف معه الطبول. يعاود بعد ذلك صوت النقرزان ويجاوبه صوت المراد وتبدأ دورة أخرى، يكون عندها قد انسحب من الحلقة. كان حسنين أبو حنة يعجبني كثيراً لكنني كنت أتنفس صوت الزومال مع الهواء الذي ألتقطه من حولي. كنت عندما ألعب أمامه أتضاءل بنفسي كي يطلق وحشيته ويسقط في النار أمام الحاضرين، فتتأجج النار وتنفخ قوتها في أجسادهم فيتمايلون طرباً؛ ليبدو لهم كأجمل ما يكون، فتنتفخ أوداجه ويظهر كأنه عرّاف من عهد سحيق، مهنته صنع السحر العجيب لمن حوله ولنفسه. تحدثت معه وحاولت أن أجعله يعرف ما كنت أصنع من أجله، وأخبره عن مساعدتي له في المزمار، لكنه غضب وفقد توازنه صارخاً في وجهي أمام رجال الحارة؛ فقد كنت أتكلم معه أمامهم. انطلقت كلماته أمامي بقوة هزتني. . .

ـ أنت ما تعرف المزمار الصح.

نظرت إليه مستغرباً وسألته:

ـ تقصد مين. . .؟

أعادها بعد أن ركّز نظراته عليّ بقوة:

ـ أقصدك أنت.

ـ . . .

لم أجبه بسرعة. لم أتسرّع في الإجابة. لم تكن الكلمات قد تكونت لديّ بعد، ولم أكن أفقت من كلماته أصلاً. نظرت إليه، وساد صمتٌ رهيبٌ سكن من حولي، ثم أجبته:

ـ أراك الخميس القادم في برحة دهديل.

هز رأسه بالموافقة وهو يتمتم بثقة:

ـ في برحة دهديل.

ذهب يوم الخميس وجمع قطع الخشب المستعملة وبعض الحطب المهمل حتى تكوّم وأصبح كافياً لإشعال النار في منتصف برحة دهديل. كان منهمكاً في جمع الخشب، حين دنا منه شخص وهمس في أذنه ذلك السر قائلاً:

ـ استمر. . . استمر. . . لا تتأخر.

اجتهدَ كثيراً قبل أن يُقتل. اجتهد على أن يكون للدم الرطب مكان في قبره، ليكتم في صدره كل العروق فتنفجر من رأسه سيول الدم وكأنه يرغب في ميتة فريدة؛ ففي منتصف الحدث ومع بداية الشيء يفقد الوجود معناه الحقيقي وتبدأ تلك اللحظات الحرجة التي يتأرجح فيها الواقع بين الوجود والعدم.

كانت بداية المزمار غير عادية، كأنه يستعدي الملكوت في تلك البقعة من الأرض. لقد انطلق الصدى بين أرجاء مكة كأنها خلت من ناسها. انتحاب جلود الطبول الهادر يتردد كرعود لم يكن لها صواعق فيتمزق السكون في القلب، وينتحر الصمت في أرجاء مكة المتربة.

تدافعت الأقدام بأجسادها المحملة بالإرث ليختلط الصمت بقرع الطبول، وتترنح الأجساد مع تمايل العصي، وتقتسم النار المؤججة في المنتصف تلك النشوة فتتطاير من بين ألسنة اللهب وتغلّف الهواء والغبار المتطاير. كانت فرقعة العصي فوق الرؤوس تقاسمني خوفي. أشاهده يتعمد الضرب بقوة. تكورت الأصوات الصارخة داخلي، وبدأت أبحث عن سبب لهذا العداء. كانت مجرد كلمات لا تعني شيئاً.

في منتصف الساحة، تبدو حلقة المزمار. كنت أتطلع إليها وكأنها شعلة نار مقدسة، والجمع يلتف حولها يؤججها برقصاته القوية تدمدم على الأرض فتضغط عليها لتتفجر ناراً متطايرة تتراقص مع الهواء والناس المحيطين بها. لقد كانت الدائرة مكتملة، ونحيب الطبول متواصل، وتقلبات الهواء تتمايل مع الأنغام وتهدر معها. كنت أقف جوار ضارب المرد، فأنا أحب صوته المتضخم وهو يتردد في أذنيَّ وبين تجاويف رأسي. أحس بنغماته تلامس روحي فتحرّكها، وكأنها تدعوها للرقص. أهتاج بعدها لأتعانق مع العصا والنار والهدير المتمزق. كان ينظر إليّ وكأنه يتحين الفرصة.

ها هو يقف أمامي متباعد الساقين. كانت البقشة مربوطة في وسطه، وبدا كرشه الصغير متدلياً من فوقها. عصاه تميل فوق رأسه المعصوب بالعمامة الحلبية. لم يترك لجسم أن يتمايل كما ترك لجسمه أن يهتز. كان دمه يبدو لي متراقصاً تحت جلده. أشعر به في اختلاجات وجنتيه المنتظمة مع نغمات المرد، ورأسه يصطدم بالهواء خلفه كأنه فوجئ برقبته تعيق انطلاقة رأسه المدمدمة. ألملم شتات أفكاري كي أتمكن من قول الحقيقة القديمة المعجونة بتراب الأزقة الموحشة. لحظات خاطفة تلك التي تمدد فيها العفريت داخلي، كمجوسيّ نهض من رقدته الأبدية.

كانت البداية في المزمار عندما تقابلنا وتحداني بنظراته وبطَرَقات المزمار الهادرة ومرده الناحب. تمت النشوة وبدأت الحياة تتحرك في قدمي. لعبنا إلى أن بدأت الناس حولنا تتراقص متحمسة للنزال، وكأن العدوى وصلتهم. تحرك نحوي وحاول ضربي بشونه فتفاديت الضربة بمهارة جعلتهم يتصايحون حولي. اقشعر بدني وكأنني خرجت منه بقوة. استمرت المعركة إلى أن تراخت عضلاته وكنت قد تصلبت تماماً داخل النغم. تشكلت الصور والفراغات ثم تهاوت العصا على رأسه بقوة لتتفجر أنهار الحياة الحمراء. (طرطش) الدم وعربد في الهواء كمارد أفلت من قمقم في البحر. رفعت الشون في أحشاء الليل وغرسته في منتصف رأسه. كانت صرخته مكتومة فلم يسمعها غيري. دخلت جوف الليل بعيداً عن نار المزمار وصخبهم حول الميت. أخذت أجري بكل ما أملك من قوة. تركت أنفاسي ورائي. كنت كمن يجري من الخوف. صعدت إلى أعلى قمة في الجبل المطل على الحفائر، وتوقفت مع نسمات الليل أنتظر أنفاسي المتسارعة للوصول إليّ. لقد كانوا خلفي برعبهم المبهم وصيحاتهم المتعاظمة، والمتداخلة في عتمة الليل.

- لقد قتله.

- قاتل.

- أمسكوه، إنه القاتل.

- لقد مات الرجل.

عندها أدركت أنني أصبحت قاتلاً. ارتبكت وأنا أقف حائراً مقطوع الأنفاس. أصوات تتردد في أذني. استمعت إلى أنفاس الحجارة حولي وقرقعات الحصى المكتومة تحت قدمي الحافيتين. لكنه صوت إنسانٍ

هامس، هذا الذي أسمع. كانت همسات بجواري وكأنها تتحدث. نظرت حولي. كان الليل حالكاً ولم أجد أية إشارة للحياة.

ـ اقترب أكثر، فأنت لن تراني.

ـ . . .

وصلتني تلك الكلمات المخنوقة وكأنها تأمرني. لم أعرف ممن اقترب ولا أين أتجه. . . إلى أن ظهر أمامي ودخلت معه. اختفينا داخل الصخور. كانت مغارة سرية لم أشاهدها من قبل برغم أنني كنت أصعد غالباً إلى هذا الارتفاع. كثافة الدخان لم أكتشفها مباشرة، فقد كان يسكنني خوف منهم. فربما يمسكون بي. كانت أصواتهم تصل إليّ من غير أن أراهم. انزويت في الركن وبدوت مرتجفاً. هدأ الليل بعد انصرافهم. التفتَ إليّ، بعينين غائمتين لم أحدد معالمهما:

ـ لماذا قتلته؟

ـ . . .

ـ كان بإمكانك تجنبه.

ـ . . .

لم أجب بشيء. شعرت بأنه يعرف كل شيء. لم أسأله من أين عرف ولا كيف. كنت كالمسحور الذي يدرك أن كل شيء ممكن.

كان ذلك شيئاً لا يُصدَّق. لم أصدقه عندما عشته، فكيف أصدقه بعد أن تم كل شيء. لن أكمل فصراخ العبيد يؤلمني.

ـ أكمل يا سراج. . . لا تهتم بهم.

ـ لا. . . لا. . .

اختفى صوته ببطء وكأنه يتصاعد في الهواء. أخذت أبحث عنه

وسط العبيد المنهكين. كان العبيد حائرين وكأنهم لا يعرفون اتجاه المسيرة أو اتجاه العمل الذي يقومون به. صعب جداً أن تكون مع أناس لا يعرفون معنًى للحرية حتى عندما تنطق بوجعهم. كنت أشعر بتعبهم المقيّد مثلهم من أنفاسهم المبعثرة حولي. تلفتُّ باحثاً عن سراج. اخترقتُ أجساد العبيد المشدودة نازلاً في الاتجاه الذي سلكه سراج. كان اندفاعي لاإرادياً. انفرج المكان على نتيجة عمل العبيد؛ كانت أرضاً ممهدة في منتصف الجبل، ورائحة الخشب المشتعل وصلتني حيث كنت أقف في الطرف. اقتربت لأجد العبيد متحلقين جلوساً حول النار. نسيت سراجاً وجلست على مقربة منهم. شعر بي أحدهم فانسحب من الدائرة واقترب مني. حاولت الابتعاد فلم أستطع. كان سريعاً وكنت مربوطاً إلى الأرض.

نظرت إليه إلى أن جلس بجواري. اكتشفت أنه سراج. كان ينظر إليّ بثبات وكأنه لا يراني. أمسك بيدي وقادني فجلسنا متقابلين على أطراف الصخور بطرف الحلقة البعيدة. لبرهة، كان يتطلع إليّ ويلفظ كلماته ببطء؛ فتتغضن أطراف عينيه ويتغضن وجهه لحظة اعتصاره للكلام. فوق الصخور المتهالكة جلسنا متقابلين. تابعَ حديثه قائلاً:

اكتشفت أنني مع عم نوح الشاتوري؛ أكبر طبيب شعبي في مكة تلك الأيام. كان يتخذ من منزل الهندية داراً للكشف الطبي. كان الأكل والشراب يأتيان إليه من غير أن يخرج من هذه المغارة التي تبدو كالقبر الفرعوني البارد. قضيت لديه أسبوعاً، لم أخرج خلاله ولم أسمع شيئاً عما يحدث في الحفائر. هكذا اعتقدت فقط عندما دخل صائحاً:

ــ غداً العيد.

ــ ماذا تقول. . . ؟

ـ غداً العيد.

ـ أيُّ عيد. . . ؟

ـ عيد رمضان. . . !

ـ عيد رمضان. . . ؟

ـ نعم عيد رمضان. . . هل نسيت. . . ؟

ـ كيف. . . ومتى قدم رمضان حتى يكون هناك عيد. . . ؟

ـ لقد أمضيت ثلاثة أشهر معي هنا، وكنت ممتازاً.

كدت أُجَن. ثلاثة أشهر من غير أن أعرف كيف قضيتها. بعدها، لم أعد أحسب الأيام. نبت شعر لحيتي وطال إلى أن أصبحت معالم وجهي غريبة عني. منذ ذلك الوقت وأنا أتحاشى النظر في المرآة. كنت أقوم بدور مساعد له في تلبية جميع طلباته الغريبة إلى أن أصبحت أعرف تماماً ماذا يريد بمجرد سماع مشكلة المريض. اكتشفت بين كتبه القديمة الكثير من غرائب السحر. لم أنسَ رقصة المزمار. كنت أشتاق إليها دائماً. أشعر بها. عندما ألعبها أحس بأن الغرائز والرغبات المفتونة تنطلق بقوة وكأنها تقذف نفسها في وسط النار الملتهبة في المنتصف. أردت أن أنتقل من الموت إلى الحياة ولو على جثث الآخرين. تحدثت معه عن رغبتي. لم يجبني. كان دائماً يتجهز للرحيل. لم يفتر عن ذكر الرحيل. نسيت الحارةُ اسمي ولم يعد يذكرني أحد. القليل يتهامسون في ما بينهم عني:

ـ كان مجنون مزمار.

ـ لم يتحدَّه أحد إلاَّ وفاز هو.

ـ إنه مسحور.

ـ كان الجن يتلبسه.

ـ هل نظرت إلى عينيه... عندما يفوز تبدوان كجمرتين مشتعلتين.

ـ قدماه لا تكادان تلمسان الأرض.

ـ أين ذهب؟

ـ خطفته الشياطين، ولا يعرف مكانه أحد.

تزاحم العبيد حولنا وكأنهم يمسكون به ويأخذونه. لم أتحرك من مكاني. كنت كالمقيَّد إلى تلك الصخرة. حملوه كريشة صغيرة وبدأوا يتصاعدون خلف بعض إلى السماء. هززت رأسي متأكداً مما أرى. لقد كان خطاً من العبيد، ممتداً إلى السماء، ودمدماتهم لا تنقطع، تضج في الهواء حولي. والحفائر نائمة تحرسها كلابها بنباح عنيد، لا يكل ولا يتعب.

انتفضت واهتز جسدي لأجد الشقوق في الجدار تتسع ويتسلل منها ضوء شاحب. تبدو الحياة مهزلة كبيرة نتبادل فيها الأدوار بصمت واتفاق مسبق تمّ بعيداً.

نظرت من الباب إلى السماء المعلقة فوق الحفائر كدخان خانق يبحث عن أنوف لا تفقه لغة الشمّ. نظرت إلى الأرض نحو جثة سراج الأعرج. كنت خائفاً ألاّ أجدها.

لكنها كانت تجثم على الغرفة كصخور الجبل القاسية. لأول مرة أحس براحة وأنا أنظر إلى الجثة فأجدها منطرحة عند قدمي. كنت أتحدث معه قبل قليل. وكنت أتحدث مع أبي. والآن لا شيء غير هذا الوجوم السحيق.

تجتاحني رغبة في أن أتحدث مع أبي. أسأله هل يعرف شيئاً عن موت سراج الأعرج؟ هل رأى العبيد من قبل؟ أسأله عن أمي. أسأله عن بيوت الحفائر وسكانها الأموات. يجب أن أجده.

قفزت من مكاني واتجهت إلى الباب راكلاً قدم سراج الأعرج الباردة. أقفلت الباب مستقبلاً نداوة الفجر ورائحة الصخور القوية.

كان خروجي غريباً على نفسي وكأني لم أعتد المشي. حاولت أن أستقيم في مشيتي، لكني لم أنجح. فقد كنت أعرج تماماً. كانت يداي متصلبتين وظهري يكاد ينقسم. كنت مسرعاً. لم أعد أرغب في أن يراني أو يكلمني أحد، إلى أن وصلت ركن منزلنا. توقفت. نظرت إلى عتبة بيت أمي سعدية. كانت حركة لاشعورية ليس لها سبب. كنت مرغماً على النظر إلى هناك. كان الضوء ينتحب في الأفق والنور خافت. لم أر بوضوح ولكنني لمحتها. نعم، لم أصدق نفسي. لقد كانت أمي سعدية تقف عند الباب والهواء يعبث بملابسها البيضاء، تماماً كما كانت تلبس عندما ذهبت إلى الحج.

ـ أمي سعدية؟

قلتها بهمس. نظراتها لم تتغيّر. رائحتها تعبق في المكان. تحلقت حولي غيوم صيفية بلا مطر تبعث الدفء في الهواء. اقتربت من العتبة وأنا أرتجف من الفرح.

خوف من هذا اللقاء تكثف حولي، وأشعرني باحتواء الحلم لكل الحفائر.

ـ لا تجيني. خليك مكانك...

توقفت. كنت أخاف أن أفقدها. نسيت كل شيء، وانتظرت أن تتكلم. كان سكوتها دهراً من الثواني الصامتة. تدفقت الكلمات من

تعابير وجهها من دون أن تقول شيئاً. كنت أتأملها والهواء يتلاعب بملابسها كأنه يحملها ويرفعها عن الأرض. شككت في أنها تقف. كانت ترتفع عن العتبة. خِفّتها تلك لم تحيرني، بل كنت أتوقعها، وأتوقع أن ترتفع في الهواء وتتقدم إلى أن تصل إليّ. كانت رغبتي تلك اللحظة، في أن أتحدث إليها:

ـ تكلمي يا أمي... كيف حالك... ليش أتأخرت. حسبناك ما حترجعي.

ـ إنت كمان حسبت زيهم.

ـ لا أنا الوحيد مستني هديتك.

ـ آه، إنت لسه فاكر.

ـ أنا لا يمكن أنساك.

ـ كيف حال أبوك.

ـ طيب زي ما هو... لكنه ما صار يزعق بعدما قفلوا دكان الحجامة.

ـ وأنت أتزوجت؟

ـ لا أتزوجت ولا هم يحزنون.

ـ وكيف عايش؟

ـ عايش على الأمل... بعدما رُحتِ صارت أشياء كتيرة.

ـ أنا ما أبغي أعرف أي شيء... تراني مستعجلة.

ـ فين تبغي تروحين. أنا ما صدقت أنك رجعتِ؟

ـ الحجاج كتير، ولازم أرجع لهم.

ـ يا أمي أنت لكِ سنين معاهم ما تكفي!

ـ يا حبيبي يا محمود. أنت زي ما أنت صغير، وكلامك أكبر منك.

ـ طيب خليك الليلة بس.

ـ مرة ثانية... أنا أبغي منك تفك البيت وتهوّيه وبعدين تجيني.

ـ فين أجيكِ؟

ـ بعدين أقول لك... يلاّ مع السلامة.

ـ بس يا أمي خليني أعرف متى حتيجي؟

ـ راح أجي من الطريق اللي وراك... شوف منور كيف؟

التفت إلى حيث أشارت ثم عدت إليها محاولاً معرفة الوقت. لكنني لم أجدها أمامي. اختفت كما أتت. اقتربت من الباب. تلفتُّ حولي. ركضت داخل الزقاق. لا أحد هناك. عدت إلى باب البيت وقد تملكني شعور غريب كأنني لا أملك نفسي. ربما أصبحت عبداً للحظات. شعرت بالقيود في يدي تكاد تذيب لحمي. ورهبة الجنون لا زالت معلقة حول رقبتي.

فتحت باب البيت ودخلت إلى المقعد مباشرة. كان والدي يتصدر المجلس ولكنه متكوم في ركنه وقد تطاير الشيب في رأسه كهالة بيضاء قاتمة. ملعون هذا الشيب الأبيض، وملعون هذا الشعر. شعرت لحظتها بأن هناك أناساً كثيرين لا يجرؤون على الاقتراب من الحقيقة بعد أن دخلوا في الكذبة. تتحرك مشاعرهم المتحجرة في المكان الخطأ، وتسبر الطريق المسدود، وعندما تصل إلى نهايته تتجه إليهم في الطرف الآخر ليرسلوها مرة أخرى... وهكذا حتى يتلاشوا.

اتجهت إلى أبي، لا أعرف ماذا أقول، فاندفعت صائحاً:

ـ ابتعدتَ كثيراً يا أبي... كثيراً جداً... تتطلع إليّ. تمد يديك نحوي. تخبرني عن اسمي ومن أكون. تتنازعني الرغبة في الاقتراب منك. أنت أيضاً مثلهم لا تستحق أن أدافع عنك. لن أتحدث معك كثيراً، فلن تضيف لي شيئاً. سَتُتَأتِئ بالكلمات ولن أسمعك. الطريق بيننا مقطوعة منذ زمن بعيد. ستكون أنت المذنب الوحيد التائب، وسأكون أنا الكلمات التي لا تعرف كيف تقولها.

اختفى قبل أن أكمل. بحثت عنه، كالمجنون، في كل أنحاء البيت، لكني لم أجده. خرجت وأنا أكاد أُجن رافضاً تقبُّلَ موته. كنت أشعر بأنفاسه تتردد حولي... وتفلت مني كزئبق لعين.

خرجت وأنا أستعيد كل الصور حولي. صعدت الجبل... نزلت إلى الشوارع... حاولت أن أطرق الأبواب علَّها تدلني عليه. لم يجبني أحد. اتجهت إلى المقبرة... تسلقت سورها... قفزت إلى الداخل. كانت الأرواح تحلّق فوق رأسي كطيور مهاجرة لا وجهة لرحيلها، ولا صوت لها. ركضت إلى أن وصلت قبره. جلست بين القبور. تتداخلني رهبة الموت، وصرخات الأموات تزلزلُ الأرض من تحتي. (خمشت) بيدي التراب، وأخذت أنبش القبر بقوة، والتراب يتطاير حول أنفاسي اللاهثة، وأنا خائف أن يموت في القبر، أو أجد سراج الأعرج بجواره...

رابغ ـ مايو ١٩٩٩م.

الحفائر. . . إحدى بوابات مكة إلى الحرم، وأتوقعها دائماً مشرَّعة أمام كل القادمين من الذنوب، كنافذة مفتوحة للصعود إلى السماء.

. . . كانت الجن تسرح بها، تستند إلى صخورها الحارة، تبتسم ثم تتوسد التراب الخشن. لا تجد أي إنسان يشعر بوجودها، غير بعض الأجساد المتفحمة والجلود الجافة.

. . . الحفائر، نفسها، قبر كبير يحتوي على ألوف من القبور الصغيرة التي تبدو وكأنها ستستمر في وجودها ما استمرت أسرارها في الكتمان.

. . . الشارع في الحفائر يرتسم بين البيوت وتحت الرواشين كخيط رقيق يمسك بزمام الحارة من داخلها، ويعبر بها ما بين الهواء والسماء إلى أن يصل إلى خط الأفق.

. . . في ليل الحفائر سحب كثيرة تتكون من كلام قيل طوال النهار، فتحيطها بهدوء متعب يتلمسه المارة. . .

. . . لم تتغير الحفائر. . . إلى الآن.



ISBN 1 85516 569 4

